اقرأ

الدكتور علي حسني الخربوطلي

العرب ورسالتهم الإنسانية

العرب
ورسالتهم الإنسانية

الدكتور علي حسني الخربوطلي

العرب ورسالتهم الإنسانية

اقرأ ٢١٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١٢ – أغسطس ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج. ع. م.

١ ـ تطور المجتمعات إلى قوميات

كيف ظهرت المجتمعات ؟

يرى العالم الإنجليزى (أرثر كيث Arthur Keith) أننا لا نستطيع أن نفهم الرجل الحديث بما يجول فى قلبه من آمال ، وبما يفزعه من مخاوف ، ما لم ندرس عصور ما قبل التاريخ . فحياة الرجل الذى عاش منذ آلاف السنين – بل منذ مئات الآلاف من السنين – هى التى تطغى على حياة الرجل الحديث الذى يعيش اليوم .

ويرى (كيث) أيضاً أن القلب والعقل كان كلاهما مسيطراً على تطور الإنسان . وكل مظاهر الإنسانية قد نتجت عن العقل حيناً ، وعن القلب أحياناً . وكان لأحدهما أو كليهما دائماً وزن فى تقدم الإنسان أو تأخره . لكن القلب هو الذى تحكم فى الإنسانية عند نشأتها الأولى – فهو الذى كوّن عند كل فريق من النـــاس تعاطفاً فطريًّا خاصًّا ساقهم إلى ما آل إليه أمرهم فى النهاية من التقدم .

لم يوجد الإنسان قط كإنسان فرد ، وإنما وجد كذكر وأنثى . وكانت (الأسرة) أبسط أشكال الوجود الإنسانى ،

وقد جاءت متلائمة مع احتياجات الإنسان ، وضرورة حتمية تفرضها طبيعته التكوينية ، لا يستطيع أن يعيش معتمداً على نفسه فى المراحل الأولى التى تعقب ولادته ، ولابد أن يرعاه ويعنى به والداه طيلة هذه الفترة ، ونتيجة لهاتين الخاصتين — الدوافع الغريزية والحاجة للرعاية — تشكل المجتمع العائلى البسيط كضرورة حتمية تلقائية تفرضها طبيعة الإنسان التكوينية ، وأصبح الاجتماع الإنسانى مغروساً فى نفس الإنسان منذ لحظاته الأولى المبكرة فى الوجود .

إن ظاهرة التعاون بين أفراد الجماعة ، ومنها الجماعة الإنسانية ، يمكن تفسيرها إلى حدما على أساس الغرائز ، وإنك لتجدها بالغة مبلغ الكمال فى النمل والنحل ، الذى لا يمكن بحال من الأحوال أن يقدم على عمل ضار بمصلحة الجماعة ، أو يحيد عن هدف واحد هو التفانى فى خدمة الخلية أو العش .

كانت الأسرة — وما زالت — أقوى التشكيلات الاجتماعية ، بل هى وضع تمليه الغريزة إملاء . إن قيام نظام الأسرة بين أفراد الجنس الإنسانى أمر ضرورى بسبب طول فترة الطفولة ، ولأن أم الأطفال كانت مغلولة اليدين بانصرافها إلى جمع الطعام . ولقد كان هذا الاعتبار وحده باعثاً على وجود الأب بوصفه العنصر الجوهرى فى حياة الأسرة ، سيان فى حالة الإنسان أو الغالبية العظمى من فصائل الطير ، ولابد أن يكون

هذا قد أدىّ إلى توزيع للعمل بمقتضاه انصرف الرجل إلى الصيد ، وانصرفت المرأة إلى الخدمة فى المنزل . ونجد تبعاً لذلك أن دور الانتقال من الأسرة إلى القبيلة الصغيرة كان من الوجهة البيولوجية قائماً على الاعتقاد بأن التعاون شرط أساسى للصيد المنتج ، كما أن تماسك القبيلة منذ العصور الأولى لابد أنه كان وليد التصادم بينها وبين القبائل الأخرى .

كيف ظهر الشعور الاجتماعى ؟

الإنسان حيوان اجتماعى ، وإذا اختلط الناس بعضهم ببعض ، وكونوا مجتمعاً صغيراً أو كبيراً ، طافت بينهم عواطف واحدة تملك على جميع أفراد المجتمع سلوكهم وشعورهم وتفكيرهم ، وفى المجتمع شعور كامن ، يسميه بعض العلماء « التعاطف الفطرى » ويسميه البعض « الشعور الاجتماعى » . وهذا الشعور يتولد من اختلاط الأفراد بعضهم ببعض . ويشبه بعض علماء النفس حياة المجتمعات الإنسانية بحياة بعض أنواع الحيوان التى تؤلف بينها شعوراً فطريا خاصًّا . ويشبه هؤلاء العلماء المجتمعات الإنسانية بسرب الطير أو قطيع الغنم أو خلية النحل . وقد يصل هذا الشعور الاجتماعى إلى أدنى درجاته فى المجتمعات البدائية فلا تختلف عن أسراب الطير أو قطعان الأغنام ، وقد يعلو الشعور الاجتماعي حتى يصبح مذهباً عالميًّا أو فكرة شاملة . وهذا الشعور الاجتماعى هو أساس ما نراه من

اختلاف بين الجماعات ، ومن اختلاف الأمم ، وتباين القوميات .

لم تستطع المجتمعات أن تصل إلى هذا الشعور الاجتماعى الراقى إلا بعد عدة مراحل . حين أصبح للجماعة الراقية وجود مستمر متصل ، وتحقق ذلك حينما أصبح لها نظام حكومى أو سياسى أو اقتصادى أو دينى يتوارثه الأجيال ، وحين شعر أفراد هذا المجتمع بموقفهم من المجتمع نفسه ، فأصبح لدى كل فرد منهم فكرة عن الحياة العامة التى يحياها هذا المجتمع ، وحين أصبح المجتمع على اتصال بسائر المجتمعات حوله . وقد يكون هذا الاتصال كفاحاً ، وقد يكون تفاهماً سلمياً . أحس أن هذا الاتصال ، مهما كان شكله ، يوضح الأفكار العامة التى تسرى بين أفراد المجتمع ، ويبلور المشاعر النفسية التى تحدد معنى المجتمع والأهداف والآمال ، وشعر أفراده بأنهم أجزاء لكل واحد .

وهذه المراحل التى مر بها الشعور الاجتماعى ، جعلت للمجتمع مجموعة من التقاليد والعادات والعقائد . وهذا أدى بدوره إلى وحدة المجتمع التى تتطلب أن يكون لكل فرد من أفراده نفس النظرة إلى الماضى كما تستدعى أن يكون لكل منهم نفس النظرة إلى المستقبل . وهذه المراحل أدت أيضاً إلى انتظام أفراد المجتمع الراقى وطبقاته بحيث يقوم كل فرد وكل

طبقة بوظائف خاصة ، ويوجه كل فرد إلى عمل خاص يحسن القيام به .

ما هى عوامل التماسك الاجتماعى ؟

إن الأداة الأولى للتماسك الاجتماعى هى (الحكومة) . لا جدال فى أنه كانت هناك تقاليد قبلية فرضت طاعتها على الجميع ، ولكن يجب أن نفترض عدم وجود وازع يحفز الناس على العبث بهذه التقاليد ، وكذلك عدم الحاجة إلى نظام يفرض هذه التقاليد فرضاً .

فى العصر الحجرى القديم ، كانت القبيلة تعيش فى فوضى شاملة ، نتيجة سيطرة الغرائز سيطرة تامة على جميع تصرفات الأفراد . أما فى العصر الحجرى الحديث ، فكانت فى القبيلة حكومة وسلطات تستطيع فرض الطاعة والتعاون الإجبارى على نطاق واسع . كل ذلك واضح فى إنتاجهم لأن التماسك الاجتماعى فى شكله المتواضع إبان القبيلة الصغيرة لم يكن ليستطيع بناء الأهرام مثلا . أما عن اتساع رقعة الجماعة ونموها فقد كانت الحرب هى السبب الرئيسى فى هذا النمو . كثيراً ما تقوم الحرب بين قبيلتين ، فيحدث أن إحداهما تستولى على أرض جديدة مما يتيح لها الفرصة لزيادة عددها ، كما قد تتوحد رقعة الجماعة إلى حد يتعذر معه على الأفراد أن يعرف بعضهم بعضاً ،

ويصبح من الضرورى ابتكار أداة يتوصل بها إلى قرارات إجماعية ، وتلك هى الأداة التى تتطور شيئاً فشيئاً حتى تتبلور فى ذلك الشكل الذى نسميه الآن (الحكومة) .

للحكومة ، منذ الماضى البعيد الذى نشأت فيه ، وظيفتان : سلبية وإيجابية . فالوظيفة السلبية هى تحريم استعمال القوة الفردية وحماية الحياة وسن العقوبات وتنفيذها ولكن إلى جانب هذا كان للحكومة هدف إيجابى هو تيسير السبل نحو تحقيق رغبات الأغلبية العظمى فى الأمة ، وقد كان هذا الهدف الإيجابى للحكومة فى كل العصور متصلا بالحرب ، فلو كان فى حد المستطاع قهر عدوّ والاستيلاء على أراضيه لكان فى ذلك منفعة مادية لكل فرد من أفراد الأمة المنتصرة تختلف باختلاف الأفراد . ولكن الذى حدث الآن هو أن تلك الوظائف الإيجابية للحكومة تطورت أو اتسعت إلى حدّ كبير . فنجد أولاها التعلم الذى لا يستهدف الحصول على مؤهلات علمية فقط ، وإنما يستهدف إلى جانب هذا إشعار النفوس بالعزة وتربية العقائد فى نفوس الرعايا . وتأتى بعد ذلك مشروعات صناعية ضخمة ترفع مستوى المعيشة فى المجتمع

كيف تطورت المجتمعات الإنسانية إلى مجتمعات قومية ؟

تطور الاجتماع الإنسانى من تجمعات بشرية غير محددة ، إلى قوميات متميزة . لم يتم ذلك ببساطة أو سرعة وإنما خضع

لتفاعلات عميقة وعوامل عديدة متشابكة امتدت وقتاً طويلا ، ورافقتها عدة أطوار من أشكال الاجتماع الإنسانى . فقد مرّ الإنسان خلال تاريخه بدور الصيد ، ودور الرعى ، ودور الزراعة وغيرها . وكان يرافق كل دور من هذه الأدوار انتقال فى شكل الاجتماع الإنسانى فمرّ الإنسان بالعائلة (الأمويّة والأبوية) ، والعشيرة ، والقبيلة ، والمجتمع المدنى (City State) والمجتمع الإمبراطورى (الفرسى ، واليونانى ، والرومانى والمجتمع الدينى (الكنيسة) والمجتمع القومى (الدولة القومية) .

هذه الأدوار والتشكيلات ، كانت أولا تعكس تجربة الجماعات البشرية فى البحث عن وضع أفضل لحياتها ، كما كانت ثانياً ذات علاقة وثيقه بإرساء البذور التكوينية الأساسية للروابط القومية ، وذلك تبعاً للوسط الذى يوفره كل منها لحدوث التفاعل والاحتكاك الاجتماعيين بين أفراد الجماعة الواحدة .

كانت التجمعات البشرية الأولى بسيطة ، فلم تكن لها فى بداية الأمر صفة المجتمعات المحددة الثابتة المتميزة عن بعضها البعض ، وإنما كانت مجرد تجمعات مائعة تفتقر إلى عناصر الثبات والاستمرار فضلا عن أن هذه التجمعات البشرية كانت قليلة العدد ، تتوزع توزعاً واسعاً على سطح الأرض ، وينفصل بعضها عن بعض بحدود جغرافية طبيعية كانت بمثابة الحواجز المنيعة التى يصعب تخطيها لبعد المسافات وصعوبة المواصلات فى ذلك الحين .

ثم بدأت بين أفراد كل تجمع آخر عملية احتكاك اجتماعى بسيط ، قامت فى بادئ الأمر على مصلحة العيش المادى المشترك من مأكل وملبس ومأوى وأمن ، واقتصر الطابع العام للتفاعل الاجتماعى فى هذا الطور فى الغالب ، على مدى ما يتطلبه هذا الهدف المشترك من تفاعل وتعاون بين أفراد المجتمع الواحد لتنظيم شئون التجمع ومجابهة ظروف الحياة .

ثم بدأ الاحتكاك الاجتماعى بين أفراد المجتمع ينتقل إلى طور آخر من نوع جديد ، فإن العيش المشترك لمدة طويلة ، ووحدة المشاكل التى كانت تجابه المجتمع ، نقلت عملية التفاعل الاجتماعى من تفاعل مادى بسيط تفرضه ضرورة الحصول على حاجات الإنسان المادية ، إلى عملية تفاعل اجتماعى عميق الأثر ، عملية تفاعل كلى ، مادى وروحى ، مصلحى ومعنوى .

بدأ العقل الفردى يصبح عقلا جماعياً ، والإحساس الفردى يصبح إحساساً جماعياً ، وبدأت تظهر فى المجتمع مقومات إنسانية جديدة ، فنمت إلى جوانب البواعث والأهداف المادية المصلحية التى كانت العامل الأهم فى ربط أفراد التجمع فى الأول ، بواعث وأهداف معنوية تقوم على المشاركات الوجدانية بين أفراد المجتمع . وبعد أن كانت مصلحة المأكل والملبس والمأوى والأمن هى الأساس الأول فى رابطة التجمع ، وهى المقياس الأول الذى يحدد العلائق الاجتماعية بين الأفراد .

رأينا الاحتكاك الجماعى الطويل داخل كل تجمع ، يضيف أسس وروابط أخرى ، كالرغبة فى إرادة العيش المشترك ، ومشاطرة أفراد المجتمع لبعضها البعض . وبدأت وحدة المشاكل التى يجابهها التجمع تنعكس فى نفوس أفراده ، ودبت فى التجمع روح جماعية جديدة كانت تخلق بدورها مفاهيم جماعية جديدة .

ونتيجة المخالطة الطويلة المنتظمة ، وجد لكل تجمع لغة خاصة به ، وعادات وتقاليد ينفرد باتباعها ، وخاض كل تجمع غمار تاريخ واحد وكوحدة مما أوجد لديه تجاربه وخصائصه وآلامه وآماله وثقافته الخاصة ، وبالتالى دوافعه وأهدافه وشخصيته الخاصة .

وهكذا بدأ كل تجمع من هذه التجمعات يكتسب صفة الثبات والتحدد والطابع الخاص المتميز ، وبدأت التجمعات البسيطة العرضية تكتسب صفة الجماعات المحددة الثابتة ذات الطابع المستقل الذى يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى ، مما مهد لقيام المجتمعات البشرية التى تتوفر فيها عوامل الاستقرار . وهكذا انقلبت الجماعات البشرية من مجرد تجمعات مائعة ليس لها أغراض واضحة ، إلى جماعات محددة ذات شخصية ثابتة مستقلة . أى قوميات تقوم على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة فى الجماعة الواحدة ، وأصبحت بذلك أمماً مختلفة متميز كل منها عن الآخر .

٢ ـ القومية : بين الدولة والأمة

ما هى القومية ؟

القومية هى الشخصية الجماعية لأية أمة ، أو هى الواقع التاريخى واللغوى والثقافى الذى يحوى خلاصة جميع التجارب الإنسانية التى خاضتها الجماعة البشرية منذ نشأتها ، إلى أن تبلورت شخصيتها تبلوراً واضحاً مميزاً قام على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة بهذه الأمة .

على هذا الأساس ، نمت كل التجمعات البشرية المنتشرة على سطح الأرض ، وتبلورت من خلال نمو روابطها القومية ، فى قوميات مختلفة ذات شخصيات قومية متميزة تحيا ضمن مجتمعات تنطبق حدودها القومية على حدودها الطبيعية والسياسية ، أى تنتهى حدود كل مجتمع حيث ينتهى أثر الطابع القومى والشخصية القومية لأمة ، ويبتدئ أثر الطابع القومى والشخصية القومية لأمة أخرى بحيث إذا ألقينا نظرة عامة على العالم اليوم وجدناه ينقسم إلى عدة قوميات ، لكل قومية منها روابطها الخاصة وشخصيتها المتميزة .

إن القومية قوة عظيمة الأهمية فى العالم الحديث ، فقد رأينا الكثير من المظاهر القوية التى تدل على قدرة أعضاء الدولة

الواحدة على الشعور والسلوك وكأنها وحدة واحدة . ولا تنحصر القومية فى نطاق الدول الصغيرة المتجانسة التى يتشابه مواطنوها إلى حد كبير ويشتركون تقريباً فى مجموعة متماثلة المصالح ، بل يبدو أن القومية تميز أيضاً الدول الكبرى .

يعرف (أورجانسكى) القومية بأنها شعور قوى بالاتحاد الشخصى مع مجموعة من الناس والأماكن وطرق السلوك التى تؤلف الدولة وأساليب الحياة بداخلها ، ويتحقق ارتباط الفرد العاطفى القوى بالدولة عن طريق تحويل جزء من تلك المواقف والمشاعر التى أوجدها الفرد فى علاقاته بالجماعات الصغيرة التى هو عضو منها ، تحويل هذا الجزء إلى الجماعة الكبرى غير الشخصية المجردة التى يطلق عليها اسم الدولة .

ونتيجة لاتصالات الفرد اليومية تنتابه مشاعر صادقة بالحب والتآلف والإخلاص نحو أسرته وأصدقائه . وبدرجة أقل نحو زملائه فى العمل وجيرانه . والواقع أن هذه المشاعر هى التى تمثل الأساس الذى يقوم عليه ارتباطه بالدولة لأنها تتحول إلى الجماعة الكبرى بطريقة سيكولوجية بحتة .

إن التقارب بين طبيعة إحساسات الفرد نحو أسرته وطبيعة إحساساته نحو دولته واضح . فالأراضى الوطنية هى أرض الوطن ، أو وطن الأب ووطن الأم ، ويتبع نطاق إحساسات الفرد نحو منزله فيشمل الدولة بأكملها . وتختلف طبيعة الحب الذى يشعر به الفرد نحو بلاده وزعمائه السياسيين بين كل دولة

وأخرى . ولكن جدير بنا أن نذكر أن شعوره نحو بلاده يتماثل مع شعوره نحو أسرته .

إن العالم إنما يتكون من مجتمعات قومية ، من أمم متعددة ، يكون كل منها بطبيعته وحدة حيوية متفاعلة ، لها واقعها التاريخى واللغوى والثقافى والنفسى والجغرافى وشكلها الاجتماعى الخاص بها ، ولها دوافعها ومصالحها وأهدافها الخاصة بها . وبكل هذه الأمور المجتمعة ، تتميز الأمم وتستقل بعضها عن بعض . وإن كانت تشترك أحياناً فى بعض هذه الأهداف مع بعض الأمم الأخرى . كما نجد كل أمة من هذه الأمم تقيم أو تناضل لكى تقيم نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً خاصاً بها يعبر عن طريقتها ويتلاءم واحتياجاتها .

متى ظهرت القومية ؟ ولماذا ظهرت ؟

إننا لا نعلم بدقة متى ظهرت الروح القومية لأول مرة . وإن كان كثير من العلماء يرون أنها ظاهرة حديثة . فالقومية ، بمعناها الحديث ، لم توجد فى أيام الرومان والإغريق القدماء ، ولم تكن قائمة أيضاً فى العصور الوسطى ، ويمكننا أن نلمس الشعور بالقومية فى بداية العصور الحديثة عندما بدأت الدولة التى تضم أمة تصبح شكلا هاماً من أشكال التنظيم السياسى لأول مرة .

والواقع أن هناك شكاً فى إمكان نجاح الزعماء الذين وحدوا

الدول من الناحية السياسية لو لم يستندوا إلى هذا الشعور .
أما اندماج الجماعات الحديثة والشعوب مع الدولة التى ينتمون إليها فهو مسألة حديثة العهد ، فقد يظهر هذا اللون من الشعور أخيراً فى ميدان السياسة العالمية وما زال ينتشر حتى الآن .

والفرد باتصالاته اليومية تنتابه مشاعر صادقة بالحب والتآلف والإخلاص نحو أسرته وأصدقائه . والواقع أن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس هى التى تمثل الأساس الذى يقوم على ارتباطه بالدولة لأنها تتحول إلى الجماعة الكبرى بطريقة سيكولوجية بحتة .

ما هى العلاقة بين القومية والدولة ؟

الدولة نطاق معنوى محدّد يضم جماعة كبيرة من الأفراد الذين يشتركون فى بعض الصفات وقد يختلفون فى كثير منها ،

إن كل فرد يشترك هو وأفراد هذه الجماعة أو تلك فى بعض الصفات ، فهو يشعر بأنه فرد فى عدة جماعات مختلفة ، ويشعر بولائه لكثير منها وأحياناً يتضارب هذا الولاء . ولا تبلغ عضوية معظم هذه الجماعات القدر الذى تبلغه عضوية الفرد فى الدولة ، فبعضها تكون جماعات أصغر من الدولة أو أكبر منها ، وبعضها يتعدى الحدود القومية .

تقوم الحكومات بأوجه نشاط كثيرة متباينة توطيداً للوحدة داخل الدولة ، وتعمل على إزالة العقبات أمام تحركات الأفراد

والتجارة داخل أراضيها وعلى تحسين وسائل المواصلات الداخلية ، ونشر وتقوية الخصائص المشتركة بين الناس ، مثل اللغة والثقافة ، وهى تحاول القضاء على الخصائص المحلية التى تضعف الوحدة القومية .

يرى (هوبز) أن أساس قيام الدولة أمران : أولهما المصلحة الفردية ، وثانيهما الخوف من تضارب مصالح المجتمع الذى تتألف منه الدولة ، ويرى أن الدولة عليها أن تهتم بالتوفيق بين المصالح المتضاربة وتوفير الأمن للجميع ، وليتم ذلك لابد من أن تجعل السلطة كلها فى يد الحكومة .

أما (روسو) فقد رأى أن هذه الدولة التى يراها هوبز ينقصها الوحدة الخلقية ، ورأى روسو أن الطريق إلى هذه الوحدة الخلقية هو السعى وراء هدف مشترك ، على أن يؤدى هذا الهدف إلى خير جميع الأفراد . ويرى روسو أنه لتكوين مجتمع واحد لابد من توفر شرطين : أولها وجود مصلحة مشتركة بحيث تستحق أن تقدم على المنافع الشخصية ، وثانيهما أن القانون الذى يخضع له المجتمع يكون من وضعه . وخلاصة آراء روسو أن العلاقات بين الفرد والجماعة أساسها شيئان : المصلحة العامة والاشتراك فى تقرير الأمور ، وهذا هو الذى سماه روسو (الوطنية) .

أما (فخته) فكان يرى أن الدولة يجب أن تتدخل فى شئون الأفراد وأن تهتم بالمصالح العامة قبل كل شىء ، وخاصة

فى النواحى الاقتصادية . وكان يرى أن الدولة هى الخير الأمثل للأمة .

يعرف (هكل) الدولة بأنها هى ما ينتج عن الاختبارات التى تجتازها الأمة فى أدوار حياتها ، فإذا فقدت بعض أنظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الأمة فى آمالها فقدت حقها فى البقاء .

يعرّف (أورجانسكى) الدولة بأنها : وحدة سياسية ، بل هى أكبر وحدة سياسية لا تعترف بوجود أية وحدة سياسية أخرى تعلوها . والواقع أن أعضاء الدولة الواحدة يمكنهم ، بل إنهم عادة ما يتشابكون فى أكثر من حكومة واحدة وأرض واحدة ، فقد يكون لهم جميعاً اقتصاد مشترك ، ولغة مشتركة ، وثقافة مشتركة ، وأيديولوجية سياسية مشتركة ، وتاريخ مشترك .

ويرى (أورجانسكى) أن الشعور بالاندماج مع الدولة يساعد على تعويض الشعور بالضعف وعدم الطمأنينة الذى يبعثه المجتمع الحديث ، لأنه فى هذا المجال توجد جماعة ينتمى إليها الفرد منذ ولادته حتى وفاته ، وهى جماعة لم يطرأ عليها اختلاف على الرغم من تغير أعضائها ، جماعة عليها أن تقبله بحكم وجوده ، وقليل من الأفراد يأملون فى المجتمع الحديث الذى تسوده المنافسة أن يبلغوا أهدافهم ، ولكن من الممكن أن يتجنب الفرد إلى حدّ ما الفشل إذا أمكنه أن يجد فى نجاح بلاده تعويضاً عاطفيًّا عن فشله . قد يصب الفرد مشاعره

العدائية على الأعداء القوميين ، وقد يشترك فى مواقف وتصرفات محرمة بموافقة المواطنين لها .

ويذهب (ورنر ليفى) إلى أن القوانين الأخلاقية التى تنطبق على الفرد باعتباره فرداً تكون خفيفة الوطأة عليه باعتباره عضواً فى الجماعة القومية . وقد يلام باتباعه لمبدأ محاسبته لنفسه والصواب أو الخطأ ، على حين قد يمتدح إذا فعل ذلك باعتباره عضواً فى مجموعة الأفراد التى تسمى الدولة ، ويسمح هذا المقياس المزدوج للمواطن وسط الجماعة بالتمتع بسلوك ربما لا يكون مسموحاً له باعتباره فرداً . وإذا فصل المواطن نفسه عن الدولة ، فإنه يستطيع أن يوافق بضمير خالص على أعمال قومية ضد الدولة الأخرى ، أى ضد جماعات الناس ، ولكنه ربما استنكر هذه الأعمال لو صدرت من أحد الأفراد .

ما هى الوطنية ؟ وما هى الأمة ؟ وما علاقتهما بالقومية ؟

القومية فى العرف القديم هى (العصبية) . والحقيقة أن العصبية التى تجمع أفراد كل قبيلة ما هى إلا القومية . ونلاحظ أن أدب الجماعات القديمة التى كانت تعيش على شكل قبائل وعشائر هو أدب قومى عصبى قبلى . والأدب اليونانى القديم والأدب العربى الجاهلى من خير الأمثلة . فقد حفلت الإلياذة بذكر العواطف القومية القبلية . كما أن الأدب الجاهلى يكاد يقتصر على ذكر مفاخر القبيلة وأمجادها .

عرفت القبائل فى نهاية المطاف نوعاً من الاستقرار ، فتركت القبيلة حياة التنقل والترحال وسكنت بقعة من الأرض وارتبطت مصالحها بها ، وبدأ حب المدينة أو القرية أو مجموعة المدن التى أقامت فيها القبيلة . وهذا ما يمكننا أن نسميه (الوطنية) أو الشعور بحب الوطن . وهكذا ارتبطت (القومية) بالمكان ، ولكنها اقتصرت على بقعة محدودة بادئ الأمر هى المدينة . فالمدينة اليونانية ، مثل أسبارطة ، لم تتجاوز منطقة سيادتها إلا بضع مئات من الأميال المربعة ، وفى المشرق العربى القديم حلت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة ، فتعصبت البصرة ضد الكوفة ، وتعصبت الكوفة على دمشق . . وفى أوربا فى العصور الوسطى (١٢٠٠ ــ ١٥٠٠ م) كانت المدينة وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة .

إن (الوطنية) هى حب الوطن ، و (القومية) هى حب الأمة . ولما كان الوطن هو قطعة من الأرض ، والأمة هى جماعة من البشر ، فإن (الوطنية) هى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم (الوطن) ، و (القومية) هى ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم (الأمة) . وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن فى الوقت نفسه حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة .

لا تزال كلمة (أمة) غامضة فى كثير من وجوه معناها ،

فليس من اليسير تحديدها ، وقد بذل اللغويون جهوداً فى سبيل توضيح معنى اللفظ ، فذكر معجم (لاروس) الفرنسى أن الأمة « مجموعة من الناس ، تسكن أرضاً واحدة ، وترجع إلى أصل واحد ، أو لها مصالح واحدة مشتركة منذ أمد بعيد ، وأخلاقهم متشابهة ، ويتحدثون فى الغالب لغة واحدة » . أما معجم القرن العشرين البريطانى فقال : « الأمة جسم شعب نشأ فى جذع واحد ، ويطلق اللفظ أيضاً على الشعوب التى تسكن فى بقعة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة » .

اختلف المفكرون فى تحديد كلمة (الأمة) باختلاف ظروفهم وأحوالهم فليس من الطبيعى أن يعتبر الأمريكى (العنصر) أصلا فى تكوين الأمة ، لأن أمته خليط من كل العناصر ، وليس من الطبيعى أن يجعل الإنجليزى (الوطن) فى المقام الأول من مفهوم الأمة ، لأن وطنه أوسع من حدود الجزر البريطانية .

تأثر (سيس) أحد زعماء الفكرة القومية فى فرنسا بمبادئ الثورة والحكم النيابى ، فقال : « إن الأمة تتألف من قوانين مشتركة » . وعرف (رينان) الأمة بقوله : « لا تتكون الأمة بوحدة اللغة أو وحدة الأصل والعنصر ، بل يكوّن الأمة أحداث عظيمة حدثت فى الماضى ، وتطلع إلى المجد فى المستقبل » . ويعرف (دركهيم) الأمة بأنها : « جماعة من البشر تريد الحياة فى ظل قوانين معينة ، وأن تكون دولة سواء

كبيرة أم صغيرة » . أما (شبنغلر) فيقول : « ليست الأمم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولوجية بل وحدات روحية » . أما فى المعاجم العربية ، فنجد أن مفهوم كلمة (أمة) تقترب من تعريفات رينان وشبنغلر .

إن مدلول الأمة كما نفهمه اليوم لم يكن محدداً عند أجدادنا العرب القدامى ، ففى معاجم اللغة العربية (الأمة) هى الجماعة من الناس ، والجيل ، والقرن ، وأهل الزمان الواحد ، وغير ذلك . وهذه التفاسير كلها لا تنطبق على ما نعرفه عن الأمة فى الوقت الحاضر ، عدا التفسير الأول أى (الجماعة من الناس) ، ولكننا نضيف إليها أنها الجماعة من الناس التى لها لغة واحدة وأدب واحد ، وتقاليد واحدة ومصالح واحدة ، والتى لها مميزات خاصة تميزها عن غيرها .

هل الوطنية هى القومية ؟

كلا ، فهناك فروق كثيرة بين الوطنية والقومية (فالوطنية) هى العاطفة التى تعبر عن ولاء الإنسان لبلده أو قبيلته أو شعبه ، سواء أكان ذلك فى العصور القديمة أم الحديثة ، والولاء نفسه إنما هو نتيجة الاتصال بالعوامل الطبيعية أو الاجتماعية . والوطنية تنظر دائماً إلى الماضى ، وهى لم تقتصر فى يوم من الأيام على جماعة دون الأخرى . أما (القومية) كمذهب سياسى فهى خطة تعنى دائماً بالمستقبل ، وهى تقتصر

على مجموعة من الناس لهم كيان الأمة . ولكل مذهب سياسى قيمة موضوعية خاصة لا شأن لها بشعور الفرد . (فالوطنية) عاطفة ، و (القومية) عاطفة ومثل أعلى فى وقت معاً . وتنطوى كل قومية على شعور وطنى ، ولكن لا تنطوى كل وطنية على شعور قومى .

إذا أردنا أن نلم تماماً بماهية مفهومى (الوطنية) و (القومية) وجب أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث هو مفهوم (الدولة) . والدولة هيئة سياسية يعرفها علماء القانون والاجتماع بقولهم: (جماعة من البشر يعيشون على أرض معينة مشتركة ، مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة) .

إن مفهوم (الدولة) هو الخط الواصل بين مفهومى (الوطن) و (الأمة) ولكن هذا الارتباط يختلف باختلاف أدوار التاريخ والظروف :

ا ــ فهناك أمة تؤلف دولة واحدة مستقلة ، مثل الأمة السويدية الآن ، فتنطبق الوطنية على القومية ، ويكون الوطن (مجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة وتدير سياستها الدولة) .

ب ــ وقد تؤلف الأمة دولا عديدة كل منها مستقلة تماماً ، مثل الأمة الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ ولذا فإن القومية تتجاوز حدود هذه الدولة وتسعى لإنشاء دولة واحدة ، ولذا لا تنطبق القومية على الوطنية .

حـ ـ وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها ، وتابعة لدولة أجنبية عنها ، مثل الأمة البلغارية أثناء خضوعها للدولة العثمانية ، وهنا تفرض الدولة الحاكمة (وطنية عامة واسعة النطاق) ، ويقوم الصراع بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التي يشعر بها أفراد الأمة المحكومة .

د ـ وقد تكون الأمة محرومة من الاستقلال ، وتكون فى الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها ، مثل الأمة البولندية قبيل الحرب العالمية الأولى . وهنا نرى كل دولة حاكمة تحاول فرض وطنيتها ، بينما تسعى القومية إلى توحيد هذه الأجزاء أولا ثم تكوين دولة قومية جديدة ثانياً .

ما مدى العلاقة بين القومية وحق تقرير المصير ؟

يخلط كثير من المفكرين بين نظرة الأقوام إلى حقها فى تقرير المصير ، وبين النظرة المجردة إلى معنى القومية . فالمبدأ النظرى لتقرير المصير (تكوين الدولة) هو أن كل مجموعة من شعب تبلغ المبلغ الملائم لتكوين أمة يحق لها أن تستقل بدولة إذا هى أرادت ذلك . وقد اعتبر ذلك الحق قريناً للديموقراطية ، فجمع الناس ما أطلق عليه (مذهب القومية) . وكان حق تقرير المصير (تكوين الدولة) يعتبر مرادفاً للقومية . وأصبح من المقرر أن « الأمة » أو « القوم » هى الأساس الذى تقوم عليه الدولة . وبقى الأمر على هذا فى نظر الساسة إلى عام١٩١٨ .

ولكن معنى القوم ومعنى الدولة ينطوى على كثير من المعانى التى لم تحدد ، فكان هذا سبباً فى كثير من اللبس والخلط فى ماضى الحوادث وحاضرها ، فالدولة هى وحدة السلطان السياسى ، سواء اعتبرناها أداة الحكم أو المجال الإقليمى الذى تسيطر عليه أداة الحكم . والأمة أو القوم هى جماعة من الناس ، وليس إقليماً من الأرض ولا أداة حكم . فقد يقال عن الأمة إنها أمة طبيعية أو أمة عنصرية . فالدولة قد تنشأ إنشاء وقد ينزع منها جزء ، وقد يقضى عليها بين عشية وضحاها بجرة من قلم فى وثيقة سياسية ترسم على ما يقتضيه القانون الدولى . وأما الأمة ، فإنها تنمو وتزدهر أو تضمحل وتضعف على سنن طبيعية لا أثر فيها لعمل مقصود من أعمال الإنسان .

ما هى أسس القومية ؟

اختلف المفكرون الذين بحثوا موضوع القومية فى تحديد أسس القومية فجعل البعض للظروف الجغرافية بما فيها من شكل الأرض وطبيعتها والمناخ الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية القومية لدى الجماعات الإنسانية ، وجعل البعض الآخر لعنصر الإرادة المشتركة فى العيش المشترك وتقرير المصير ، الأثر الأول . بينما أكد البعض أهمية الدين الواحد فى إيجاد الوحدة القومية ، وذهب آخرون إلى محاولة تفسير هذه الوحدة بأسطورة

العنصر الواحد ، كما قال البعض بأن اللغة الواحدة والتاريخ الواحد ، هما الأساسان الأولان فى تكوين القوميات . وقد كانت معظم هذه الآثار متأثرة إلى حد بعيد بالظروف التى كانت تحيط بكل قومية ، ومدى تأثر كل مفكر قومى بظروفه القومية الخاصة .

لكل قومية ظروف نشأتها الخاصة من حيث أهمية بعض الروابط بالنسبة للأخرى ، ولكننا نستطيع أن نقرر أنه لا اللغة وحدها ، ولا التاريخ وحده ، ولا الأرض وحدها ، ولا المصلحة وحدها ، ولا أى عامل آخر بمفرده يمكن أن يكون القومية . فهناك قوميات مختلفة متميزة رغم أن الأرض التى تسكن عليها متقاربة أو واحدة من حيث الطبيعة الجغرافية ؟ كما فى السهل الأوربى الكبير ، وهناك قوميات مختلفة رغم أنها تدين بدين واحد ، كما أن هناك عدة أديان ومذاهب فى القوميات الواحدة ، ولا توجد قومية واحدة تدين بدين واحد . وهناك قوميات مختلفة متميزة رغم أنها تتكلم لغة واحدة (أمريكا وبريطانيا) ، وقوميات واحدة تتكلم أكثر من لغة (بلجيكا وسويسرا) ، وقوميات مختلفة متميزة رغم أنها متقاربة جداً فى الثقافة (أمريكا الجنوبية وأسبانيا) ، كما أن إرادة العيش المشترك لا يمكن أن تصلح مقياساً للحكم لأنها تتأثر بدرجة تبلور الوعى القومى عند أفراد القومية الواحدة ، كما تتأثر بعوامل قهرية خارجية وداخلية قد تحرف هذه الإرادة فلا تكون أصلية معبرة عن الواقع

القومى . ولذلك لا نستطيع أن نعتمد رابطة معينة دون أخرى إذا أخذت كل من هذه الروابط بمفردها .

إن القومية هى الواقع التاريخى الاجتماعى الناتج عن تفاعل جميع الروابط السابقة تفاعلا عميقاً مترابطاً ، والشخصية الجماعية التى لصقت بالأمة نتيجة هذا التفاعل ، ولذلك فإن نسبة اختلاط هذه الروابط القومية قد تختلف من أمة لأخرى تبعاً لاختلاف ظروف نشأتها .

ولكن يمكننا أن نذكر أن أسس القومية هى : وحدة اللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، والوطن ، والمصالح ، والعادات والتقاليد ، والآمال ، والآلام . إن أية جماعة من البشر ، تتوفر فيها وحدة الروابط السابقة هى قومية واحدة متميزة مستقلة . وينبغى أن نلاحظ أن القومية ليست جمعاً حسابياً جامداً لهذه الروابط ، وإنما هى التفاعل العميق الذى حدث بين الأفراد بالاستناد إلى تلك الروابط وجعلهم وحدة متميزة . ومن الواضح أيضاً ، أن هذه الروابط لم تخلق فجأة فى الأمة ، ولم تعط لها من مصدر خارج عنها ، وإنما هى روابط أوجدتها الأمة خلال التفاعلات العديدة العميقة التى اتخذت مجراها فى حياتها ، وقد أصبحت هذه الروابط الآن ، مظاهر تعبر عن وجود القومية ، وتؤكد وحدتها وتماسكها كما أنها تميزها .

٣ ـ القومية طريق إلى التعاون الدولى

هل تؤدى القومية إلى العنصرية أو الانعزالية أو التعصب ؟

بعد أن استعرضنا فى الفصل الماضى أسس القومية ، يمكننا أن نقول إن القومية لا تقوم على أساس العنصر ، وإن الوحدة القومية لا تعنى أبداً العنصر الواحد ، وإنما تعنى الوحدة اللغوية والتاريخية والجغرافية والثقافية ، ووحدة العادات والتقاليد والمصالح والأهداف . وقد أثبتت الأبحاث العالمية أنه ليس هناك أمة واحدة تنحدر من عنصر واحد خالص ، بل هنا . أمم تتألف من اختلاط أجناس عديدة مختلفة .

قسم بعض العلماء البشر إلى عدة أجناس اعتبروا بعضها أجناساً ممتازة بالفطرة ، وبعضها منحطة بالخلقة ، واتخذ البعض هذه النظرية وسيلة لتبرير النظم الأرستقراطية قائلين : إن من حق الأمم الممتازة بالفطرة ــ بل من واجبها ــ أن تسود على الأمم الأخرى لخير الحضارة ، ولمصلحة الإنسانية .

القومية أساسها الشعور بين أفراد الأمة ، وتلك العنصرية تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التى تعيش معها ، ومن ثم كانت القومية العنصرية خطراً على السلام العالمى ، بينما نجد أن القومية الصحيحة تهيئ أتباعها

للقيام بواجبهم كجماعة وكأمة فى سبيل الحضارة العالمية .

لم يعد مفهوم العنصرية يستعمل فقط للدلالة على النزعة التى تقول بالعنصر الخالص والدم النقى ، وإنما أصبح يقترن بمفهوم التعصب والاستعلاء ، كما اقترنت فكرة الشخصيات القومية المتميزة فى أذهان البعض بمفهوم التعصب والاستعلاء القومى .

إن القومية لا يمكن إلا أن تتركز حول ذاتها ، وإن إحساساتها وانفعالاتها وتطلعاتها ومشاركاتها الإنسانية لا يمكن أن تتعدى حدود أرضها القومية لتشمل آفاق الإنسانية الرحيبة ، وإنها لا تتعدى حدود أرضها القومية لتشمل آفاق الإنسانية الرحيبة ، وأنها حتى حين تتعدى هذه الحدود فلكى تعتدى على القوميات الأخرى وتغتصب حقوقها وتجرح إنسانيتها . وقد تولد عن هذا الانطباع أفكار تقول بأن الشعور القومى سيؤدى إلى الاستعلاء القومى وإلى الحروب ، وبأن العالم سيبقى أبداً يعيش فى خطر الحروب طالما بقى يعيش فى مجتمعات قومية .

وأصحاب هذا الرأى يخلطون بين القومية كواقع للاجتماع البشرى ، وبين النزعة القومية العدوانية ، ويخلطون بين الاتجاهات القومية المتعصبة والمتشربة بالغرور القومى Chauvinism

إن كون العالم ينقسم إلى قوميات مختلفة صنعها وميزها التاريخ الإنسانى الطويل ، لا يعنى مطلقاً التعصب والاستعلاء

القوميين ، ولا يعنى مطلقاً أن هناك قوميات أفضل من غيرها ، وأن هذه الأفضلية تبرر لبعض القوميات استعمار غيرها واستغلالها واغتصاب حقوقها القومية وسلبها حقها فى الحياة الإنسانية الحرة . إن التمييز والاختلاف اللذين نشاهدهما بين قوميات العالم ، ليسا أبداً تمييزاً بمعنى الأفضلية التى تؤدى إلى الغرور القومى والاستعلاء ، ولا اختلافاً فى الحقوق القومية لكل أمة .

إن الحق فى الحياة القومية المتحررة العادلة هو حق لكل قوميات العالم بالتساوى ، ولا يتأثر بكبر القومية أو صغرها أو غناها أو فقرها . ومقياس الحق فى العلاقات الاجتماعية الإنسانية (سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية) ، هو بقدر ما يتطابق والحق القومى أولا وأخيراً .

ما هو المذهب الفردى ؟ وما هو المذهب الجماعى ؟

فى المجتمع عنصر فردى ، وعنصر اجتماعى ، والعنصر الأول هو الذى يسمو بمركز الفرد عن الجماعة ، والعنصر الآخر هو الذى يسمو بمركز الجماعة عن الفرد . الأول يقوم على أن لكل إنسان شعوراً من اللذة والألم هو الذى يدفعه أو يمنعه فى حياته السياسية والاجتماعية . فهو يسير وراء اللذة فى نفس الوقت الذى يجتنب فيه الألم . ثم يقوم أيضاً على أن للإنسان عقلا يسترشد به فى حياته الخاصة والعامة ، وأن مثل

هذا العقل يفرق بين الخطأ وبين الصواب ، ويبصر الفرد بعواقب سلوكه فيحول بينه وبين اقتراف الخطأ .

أما مذهب الجماعة فإنه يقوم على أن الجماعة سواء أكانت قبيلة أم دولة أم أمة أم إمبراطورية ، هى التى تتحكم فى سلوك الفرد .

يمثل المذهب الأول : هربرت سبنسر ، وبنتام ، وجون ستيوارت ، فى إنجلترا . ويمثل المذهب الثانى : هيجل فى ألمانيا . وأدى المذهب الأول إلى الإصلاحات التى تمت فى إنجلترا وفى غيرها من البلاد الديموقراطية فى القرن ١٩ ، ولعله كذلك أدى إلى الإصلاحات الاجتماعية التى تدعو إليها الديموقراطية فى هذا القرن . أما المذهب الثانى فقد أدى إلى الوحدة الألمانية فى القرن ١٩ .

ما مدى علاقة المذهب الفردى بالديموقراطية والقومية ؟

اقترن المذهب الفردى بالديموقراطية خلال القرن ١٩ ، واقترنت النظم الديموقراطية بالنظم القومية . فقد كانت القوميات الناشئة طموحة تريد أن تشيع الحكم الديموقراطى بين أفراد الأمة الواحدة كما كانت تريد أن تبلغ الحكم الذاتى فتنفصل عن الدولة القديمة . وكانت الأمم فى كفاحها فى القرن ١٩ تهدف إلى أمرين : أولهما الاستقلال أو الحكم الذاتى ، وثانيهما إقامة حكومة ديموقراطية حرة .

يقوم المذهب الفردى على الإصلاح ، فقد رأى المصلحون أن المجتمع لن ينمو ولن ينشأ حتى يتقدم كل فرد من أفراده وكل مجموعة من مجموعاته ، فالفرد أساس الديموقراطية وهو لا يستطيع أن يبلغ أكثر ما يمكن من النشأة والنمو حتى يدرك قوة فى العقل والجسد . ثم إن الفرد لا يستطيع أن يبلغ أكثر ما يمكنه من الخير إن لم يسكن إلى مورد للرزق يؤمنه مما قد يحيق به من الفاقة ، ويطمئن إليه عند المرض والشيخوخة . ولن يستطيع الفرد أن يدرك أكثر مما يرجى له من الخير حتى يكون له كرامة تحل عنده محل العبودية . وهذه هى أسس الديموقراطية فى القرن ١٩ .

كيف ظهر التعاون بين الجماعات البشرية ؟

رأينا كيف أن ظاهرة التعاون بين أفراد الجماعة ، ومنها الجماعة الإنسانية يمكن تفسيرها إلى حدما على أساس الغرائز ، مثلما هى فى النمل والنحل . وأصبح الإنسان فى جماعات صغيرة يتراوح عددها بين خمسين أو مائة ، وقام تعاون بين هذه الجماعات اتخذ صوراً مختلفة . ولكن حيثما أمكن الاتصال نشب العداء . وطالما كان الإنسان ظاهرة غريبة أو نادرة كان احتكاك الجماعات بعضها ببعض أمراً عرضياً لا أهمية له . لقد كان لكل جماعة رقعة من الأرض ، فلم يكن ليحتدم النزاع إلا عند الحدود . ولكن عندما يتزايد عدد

الأفراد فى الجماعة إلى الحد الذى لم تعد تتسع له رقعة الأرض ، كان ذلك مدعاة لاصطدام بينها وبين الجماعات الأخرى المجاورة . وكان الآباء الأولون فيما يصدر عنهم من أفعال مدفوعين بغريزة آلية تتجلى فى مظهرين : رباط الصداقة بين أفراد القبيلة الواحدة وشعور بالعداء تجاه القبائل الأخرى .

ثم بدأت مرحلة أخرى من التطور ، فإن الحروب التى كانت فى بداية عهدها تستهدف إبادة القبائل المعادية أصبحت بالتدريج حروب غزو واستعمار ، أى أن القبائل المغلوبة على أمرها لم تكن ليقضى عليها بالموت ، وإنما أصبحت تعامل معاملة الأرقاء يحرث أفرادها الأرض ويزرعونها لسادتهم الغزاة . فإذا ما استقرت هذه الظاهرة ألفيت طبقتين فى المجتمع : أولا هما العناصر الأصلية من السكان وهم الأمراء تتمثل فيهم روح الجماعة ، وثانيتهما العناصر التى خضعت واستسلمت لسادتها استسلاماً لا تلبية فيه لداعى الغريزة .

إن الولاء الحديث الذى ندين به للجماعات الكبرى فى وقتنا هذا ما زال يعتمد على تلك الأداة النفسية القديمة التى ابتكرتها القبائل الصغيرة فى الزمن القديم ، والطبيعة الإنسانية المرسلة على سجيتها والتى لم تتأثر بعد بالمدارس والأديان عن طريق الدعاية والتنظيم الاقتصادى .

نستطيع على أساس الغريزة أن نقسم أفراد الإنسان قاطبة إلى أصدقاء وأعداء : أصدقاء تربطنا بهم رابطة أخلاقية هى

التعاون ، وأعداء تربطنا بهم رابطة التنافس ، ولكن هذا التقسيم يعتريه التغيير الدائم ، والذى يحدث هو أن يمقت الرجل منافسه فى العمل أحياناً ، ولكنه لا يلبث أن يشعر نحوه بشعور الإخـــاء إزاء تهـــديد من جانب داخلى أو خطر الغزو الخارجى ، وإذا ما تخطينا حدود الأسرة ، نجد أن العدو الخارجى كان العامل القومى فى تماسك الجماعة ، والواقع أننا نستطيع أن نكره جارنا فى وقت السلم ، لكن لابد أن نتحول إلى محبته فى ساعة الخطر ، وقلما يشعر الناس بحب هؤلاء الذين يجلسون إلى جانبهم فى المركبات العامة ، ولكن يظهر هذا الحب إذا ما أحدقت بهم غارة جوية .

إن الصراع قانون الحياة ، وإن فكرة توحيد البشرية لو كتب لها أن تتحقق لكان لزاماً علينا أن نتدبر طرق الغلبة على هذه الوحشية اللاشعورية البدائية عن طريق تدعيم سلطات القانون أحياناً ثم توجيه الغريزة فى نطاق آخر توجيهاً بريئاً يخرج بها عن وحشيتها .

لقد أودعت فينا كل الغرائز العدوانية جنباً إلى جنب مع غرائز الابتكار والبناء ، ولكن المجتمع يحول بيننا وبين إشباع هذه الغرائز . ثم يتقدم إلينا بألوان أخرى من النشاط فيها أعداء لنا ككرة القدم ، وحلبات المصارعة ، وهى ألوان قلما تكفى لإشباع الغرائز السالفة الذكر .

إن أفراد البشر العاديين لا يستطيعون أن يكونوا سعداء

بلامنافسة بينهم ، ولكن علينا أن نعمل على ألا يتخذ التنافس شكلا ضاراً . لقد كان التنافس فى عصور البشرية الأولى صراعاً يقرر أى الرجلين يجب عليه قتل الآخر وأسرته . والحرب بوصفها لوناً من ألوان التنافس الحديث تتخذ هذا المظهر أيضاً ، ولكن التنافس فى الألعاب الرياضية وفى الأدب والفن ، وكذلك التنافس فى أفق النظام السياسى الدستورى ، يتخذ من الأشكال ما لا ينجم عنه ضرر يذكر ، وهو فى الوقت نفسه إعلاء لا بأس به للغرائز الوحشية فى الكيان البشرى .

إن مشكلة المصلح الاجتماعى لا تنحصر فى البحث عن مسائل الأمن والطمأنينة فقط ، لأن هذه المسائل حتى لو توفرت لن تشبع النفس الإنسانية الإشباع المنشود . ويجب أن نجمع بين مسألتين : أولهما شعور بالأمن إلى الحد الضرورى لبقاء النوع ، وثانيهما الإبقاء على لون من المخاطر والمغامرات والصراع ، يتفق مع الحياة المتمدينة . ولكن يجب أن ندرك أن التوفيق بين الغرائز البشرية الأولى وأوضاع المدنية الحديثة أمر غير ممكن . حقاً أن الإنسان يستطيع أن يكيف طبيعته حسب ظروف بيئته، ولكن لا يمكنه استبعاد غريزة واحدة من الغرائز الرئيسية فى الكيان الإنسانى .

إن الحياة التى تعوزها روح المغامرة قد لا تبعث على القناعة ، ولكن الحياة التى تستحل المغامرة فى أى شكل من

الأشكال أو أىّ صورة من الصور لابد أن تكون قصيرة .

هل تتحول الدولة إلى وحدة سياسية أوسع نطاقاً قد تشمل العالم كله ؟

يجيب (أورجانسكى) على هذا السؤال بقوله : إن القوى التى بعثت الدولة لم تنشأ سريعاً بل استغرقت زمناً طويلا حتى اكتملت ، كما أن تكييف الأفراد الذى جعلهم يقبلون هذه الوحدة الجديدة تتطلب مجهوداً شاقًّا . لذلك يتطلب القضاء على الدولة كنظام للحكم ظهور قوى جديدة لا تقل عظمة عن القوة السابقة ويتطلب تكييفاً لا يقل صعوبة عن التكييف السابق . هذا كما أن القومية لا تعتبر قوة عتيقة استهلكت من طول استخدامها ، بل على خلاف ذلك ، فهو تطور جديد نسبيًّا لم ينشأ فى الكثير من بقاع العالم إلا حديثاً .

من الخطر أن يفكر المرء ويكتب عن الدولة كما لو كانت مجموعة من الناس يفكرون ويتصرفون كفرد واحد ويشتركون فى جميع الآراء التى يعبر عنها قادتهم . ومن الخطأ أيضاً أن نتناول الزعماء القوميين بصفتهم أفراداً لا يمثلون أحداً غير أنفسهم . ففى وسع الزعماء القوميين أن يكلفوا المواطنين فى دولهم بالقيام بكثير من الأعمال ومن بينها شن الحرب . حقًّا أن الأفراد وحدهم هم الذين يشكلون السياسة العامة فيعقدون السلم أو يشنون الحرب . ولكن هناك فئة من الزعماء هى التى تتكلم باسم الدولة . كما أن الدولة هى التى تتصارع هى وغيرها من

الدول وليس مجرد تلك الفئة من الزعماء أو مجموعة الأفراد .

إن الفرد عضو فى عدة جماعات مختلفة ، ويشعر بولائه لكثير منها ، وأحياناً يتضارب هذا الولاء . ولا تبلغ عضوية معظم هذه الجماعات القدر الذى تبلغه عضوية الفرد فى الدولة. فبعضها تكون جماعات أصغر من الدولة ، أو أكبر ، وبعضها يتعدى الحدود القومية .

فقد ينتمى الفرد لأسرة ما ، أو إلى جماعة من الأصدقاء أو إلى جماعة تمثل مهنة أو حرفة . وقد ينتمى الفرد أيضاً إلى جماعات أضخم حجماً من دولة ، فهو قد يكون أوربياً أو أمريكياً . وكثير من الناس فى العالم يعتبرون أفراداً ينتمون « للعالم الحرّ » وجميعنا — سواء أردنا أن يرتبط كل منا بالآخر أو لا — أفراد تنتمى إلى الإنسانية . وهناك جماعات أخرى ينتمى إليها الفرد ، وهى تتعدى الحدود القومية فترتبط بينه وبين بعض الناس فى الدول الأخرى بل تعزله أحياناً عن بنى وطنه . فهذه طبيعة الجماعات الدينية ، والجماعات الطبقية ، والجماعات العنصرية .

هذه الجماعات كلها لا تعارض الدولة . فإن الجماعات الصغيرة تدخل فى الغالب داخل نطاق الدولة بوجه عام . ومن النادر نسبياً أن يجد الفرد أن أسرته أو دائرة أصدقائه أو جماعة عمله تضم أناساً ينتمون إلى جنسية غير جنسيته؛ والجماعات الكبرى تكاد جميعاً تكون متشابهة ، لا سيما تلك الجماعات

التى تتألف من جماعات من الدول . ولا تعبأ الحكومة الأمريكية مطلقاً إذا اعتبر الأمريكيون أنفسهم أعضاء فى العالم الحرّ ، كما لا تعارض أية حكومة عربية أن يعتبر رعاياها أنفسهم جزءاً من العالم العربى . ولا تبدو هناك صعاب إلا إذا سمح الأفراد بتغليب ولائهم للجماعات ذات النطاق الكبير على ولائهم القومى فى حال نشوب نزاع بين دولتهم ودولة أخرى . غير أنه يبدو أن المصالح القومية ومشاعر الولاء والإخلاص للوطن تتغلب فى معظم اللحظات الحرجة التى تمرّ بها البلاد .

هل القومية هى الطريق إلى التعاون العالمى ؟

من الشروط الأساسية لقيام مجتمع راق هو أن يكون هذا المجتمع على اتصال بسائر المجتمعات حوله . وقد يكون هذا الاتصال كفاحاً ، وقد يكون تفاهماً سلمياً . ولكن ينبغى فى كلا الحالتين أن يتصل كل مجتمع بالمجتمعات المجاورة له . فإن المجتمع الذى يتصل بالمجتمعات الأخرى يتمسك بالكثير من وجهات نظره ، وكلما أمعن المجتمع فى الكفاح أو المتاجرة توضحت الأفكار العامة التى تسرى بين أفراده ، وتبلورت المشاعر النفسية التى تحدد من معنى المجتمع ، والأغراض والآمال التى تحدوه ، وشعر أفراده بأنهم أجزاء لكلٍّ واحد .

وإذا تحقق قيام هذا المجتمع الراقى المنشود ، تحقق وجود الشعور الاجتماعى ، وهذا الشعور يؤدى بدوره إلى الوحدة

القومية . وليست الوحدة القومية فى الواقع إلا وحدة الأسرة الفطرية الأولى أو القبيلة الفطرية الأولى ، بعد أن تطورت تطوراً كبيراً فأصبحت مجتمعاً راقياً . فالوحدة الاجتماعية بدأت جماعة فطرية يجمع بين أفرادها شعور واحد ، واستمرت مئات السنين بل آلاف السنين فى بقعة واحدة حتى اشترك أفرادها فى كل المشاعر التى تجول فى خواطرهم . وكانوا مشتركين فى وجهات نظرهم . ثم ألزمتهم أحوال الحياة أن ينظموا أنفسهم بأنفسهم ، فتخصص أفراد منهم فى عمل من الأعمال ، وتخرجت طبقات منهم فى ناحية من النواحى . وكانت كل هذه العوامل متكافئة . تحدث فى نفس الوقت ، وأنتجت فيما بينها أمة أو شعباً .

هذا الشعور الاجتماعى الذى لمسناه فى كل وحدة اجتماعية ، هل ينتظم العالم جميعه دون تفرقة بين أمة وأمة ؟ أو بين شعب وشعب ؟ هل مصير الفروق النفسية بين القوميات إلى الزوال ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتطور من القومية إلى العالمية ؟

إن الإنسان يحب أمته ، تحت تأثير النزعة القومية ، فيشعر نحوها بارتباط عاطفى قوى ، فيعتبر نفسه جزءاً منها ، يفرح ويحزن لها ، ويتمنى قوتها ، ويفخر بأمجادها . هذا ، كما أن الإنسان يحب وطنه — تحت تأثير النزعة الوطنية — فيشعر نحوه بعاطفة قوية ، فيفرح لخير يصيب الوطن ، ويتألم لكارثة تصيبه ، ويضحى بحياته من أجله .

إذا بحثنا عن منشأ هاتين النزعتين ، نجد أن منبع الوطنية حب الوطن ، ومنبع القومية حب الأهل . فالإنسان يشعر بعاطفة شديدة نحو المكان الذى ولد ونشأ فيه ، كما يشعر بعاطفة باطنية نحو أهل هذا المكان ، ونحو جميع الناس الذين عاش معهم فى صباه . فنجد الأطفال دائماً يتعلقون ببيوتهم أو الأحياء التى يسكنوها ، ويشعرون بالغربة إذا ابتعدوا عنها . ويتعلقون بآبائهم وأمهاتهم وجيرانهم ، وينفرون من الغرباء . وهذا الارتباط المعنوى الذى يتولد فى نفوس الأطفال يتوسع بالتدريج فيشمل الحارة والقرية والمدينة وسكان كل منهم ، ويمكن أن تتطور فتشمل العالم أيضاً .

إن تيسير المواصلات عوّد الناس السفر والرحلات ، وقصر المسافات بين الدول والأمم والشعوب ويسر أمر الامتزاج والاختلاط ومهد إلى اندماج البشر ،وأضعف إلى حد ما روابط الوطنية والقومية .

ليس من الضرورى أن يخرج الإنسان من بلدته أو وطنه أو دولته حتى يمكن أن تتولد فيه (روح عالمية) فإن علاقة الإنسان بالوطن لا تنشأ من تفاعل مادى محسوس ، كما تنشأ علاقته بمسقط رأسه . وكذلك حدود هذا الوطن لا تتعين بالمشاهدة المباشرة ، كما يحدث ذلك فى مسقط الرأس . وذلك لأن الفرد لا يكون قد شاهد ــ عادة ــ إلا قسماً صغيراً من الوطن ، ولا يكون قد عاشر إلا فئة قليلة من أبناء الأمة .

ولذا فإن الروابط التي تربط الفرد بوطنه وأمته ، تنشأ من عوامل فكرية ومعنوية ، أكثر مما تنشأ من عوامل حسية ومادية .

إن ذلك الشعور الاجتماعي ، والشعور الوطني ، والشعور القومي ، يمكن أن يتشابهوا بين كل البشر إذا تشابهوا فى التربية والثقافة والدراسة ووسائل الحياة . كثيراً ما نسمع بعض الفلاسفة يتحدثون عن الإنسانية العالمية ، فقد درسوا العالم فى تمعن وتدقيق وتمحيص حتى صغرت فى أعينهم الفروق مهما كبرت ، وحتى شعروا فى أغوار نفوسهم بولاء للبيئة العالمية التى أنتجتها دراستهم وثقافتهم . أولئك قوم اتصلوا بالعالم اتصالا وثيقاً ، فأنتج ذلك عندهم نوعاً من الولاء العام .

إذا استطاع الأفراد أن يختطوا سبيلا إلى ذلك الولاء العام كان ذلك كسباً للمثل الأعلى العالمي . لكن البيئة العالمية التى يقوم عليها مثل هذا الولاء عسيرة غاية العسر ، سامية غاية السمو. ولأن يكون الولاء للعالم خالصاً ينبغى أن يتوافق وأنواع الولاء الأخرى التى يكنها الإنسان بين جنبيه . كما أن هذا الولاء للعالم يجب ألا يتنافى مع الولاء للأمة . فكما أن الولاء للأسرة لا يتناقض وولاؤنا للوطن ، فيجب كذلك أن نوفق بين الولاء للوطن وبين الولاء للعالم .

هل تتعارض الأهداف القومية مع الأهداف العالمية ؟

لاشك أن الدولة التى تسعى إلى تحقيق أهداف يعتقد شعبها وشعوب الدول الأخرى أنها تعد بمثابة خطوات نحو تحقيق الصالح العام ، تكون قد جنت فوائد عظيمة . فإن الدولة التى تريد أن تقنع الدول الأخرى بأن تحذو حذوها أو بأن تفعل كما ترى يجب أن تحمل تلك الدول على الاعتقاد بأنها تعمل فى سبيل خيرها وخيرهم . ونتيجة ذلك نجد أن جميع الدول تدعى أنها تعمل حقاً من أجل خير البشرية .

ليس هذا الأمر يسيراً كما يبدو ، لأنه إذا كان على الدولة أن تقنع الدول الأخرى بأن أهدافها تسعى إلى تحقيق المصلحة العامة ، فلابد لها من أن تراعى القيام ببعض الواجبات وأولها أن تؤمن الدولة نفسها بذلك ، لأنه من الصعب جداً للمرء أن يحمل الآخرين على الاعتقاد فى أمور لا يؤمن هو نفسه بها . فالصدق والإخلاص هنا أمران ضروريان . فلابد أن تؤمن الجماعة القومية بل وزعماؤها بوجه خاص ، تؤمن إيماناً عميقاً بأن ما تفعله هو فى سبيل الصالح العام .

ولتحقيق ذلك ، يجب على كل جماعة قومية أن تضع لها من المبادئ المثالية ما يستهوى القوميات الأخرى ، مثل : المساواة بين البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم . أو شعارات مثل : (الحرية والمساواة والإخاء) أو (من كل حسب طاقته ،

إلى كل حسب طاقته) . حقاً أن بعض الدول تنادى بهذه الشعارات فى الوقت الحاضر لكنها لا تنفذها ، فالولايات المتحدة الأمريكية تنادى بمبدأ (المساواة) لكن الأمريكيين لا يشملون بقولهم هذا الزنوج . كما أن الفرنسيين لم يخطر ببالهم أن يمنحوا الحرية والمساواة والإخاء إلى أهالى مستعمراتهم . إلا أن هذه الحقائق كلها لا تقضى على ما لهذه المبادئ من أنها مثل عليا تحقق البشرية دائماً تقدما نحوها .

ولولا وجود هذه المبادئ والتقاليد الإنسانية ، لكان من المستحيل أن يؤمن أحد بما تظهره دولة ما من حب للغير . ولقد آمنت كل من ألمانيا النازية وإمبراطورية اليابان برسالتيهما ، غير أنهما لم توفقا فى حمل الدول الأخرى على الإيمان بمعتقداتهما لأنه لم يكن لدى أى من الدولتين (مثل إنسانية) تصلح للتصدير . فقد كان الألمان حاذقين فى تمزيق اعتزاز البريطانيين بأنفسهم ، بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يحملوا الآخرين على تصديقهم . وتحدث اليابانيون عن خلق مجال يحقق فيه الرخاء الشامل ، وتحدثوا أيضاً عن شعار (آسيا للآسيويين) ولكن لم تنظر إليهم تلك الشعوب التى هزموها على أنهم محررون للشعوب.

ولكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه حينما يدرك البشر الفائدة التى تتحقق من هذه المبادئ الإنسانية سيعملوا على خلقها . كما أن هذه المبادئ والآراء إنما هى نتيجة تطور ظل عدة قرون ، ولا يمكن أن تخلق بين يوم وليلة .

ناقش (برتراند راسل) إمكان تطور (القومية) إلى (العالمية) فقال : الشعور القومى حقيقة لا يمكن نكرانها ، كما لا يجب تجاهلها فى المجتمعات ، فإنه يقوى ويتمكن ويصير مبعثاً لنضال طويل ، ولا يمكن عندئذ رده إلى حظيرة السلام إلا بتركه حرّاً طليقاً ما دام غير وحشى . ولكنه ليس فى ذاته من المشاعر المحببة أو الخيرة ، فكل شىء يضيق من التعاطف العام للجنس الإنسانى كله بغيض مقيت . أما الشعور الوطنى فيتسم بعنصر خفى أو واضح من العداء للأجانب . وما كان لهذا الشعور الوطنى أن يوجد فى أمة حرة تمام الحرية من ضغط خارجى عليها بعداء مماثل .

كل إنسان على حق إذا اشتغلت أفكاره بوطنه أكثر من اشتغالها بالأوطان الأخرى ، لأن أعماله أعمق تأثيراً فى أمته منها فى أية أمة أخرى . بيد أنه من الواجب أن تختلف هذه النظرة فى زمن الحرب عنها فى زمن السلم ، ففيما يختص بالمسائل التى تهم الأمم الأخرى كما تهم أمته ، عليه أن يعد الحيز العالمى فوق كل شىء ، وألا يدع عقله محدوداً منطوياً على مطالب الجماعة القومية وعلى مطالب أمته .

إن الثقافة خير ما يثبت إمكان تطور (القومية) إلى (العالمية) ، فلن تكون الثقافة القومية ثقافة أصيلة إلا بمقدار ما تشترك به الأمة من جهد فى تطور الثقافة العالمية . فإذا كان لأمة من الأمم قسط وافر من البحث العلمى الخالص ،

ومن الأدب الرفيع السامى ومن الدين القويم ، ثم إذا كان لها قدرة على تمثيل هذه الثقافة العالمية بمختلف وجوهها ، عدت ثقافة هذه الأمة صادقة أصيلة ، فليس معنى الثقافة القومية أن تكون محدودة بالحدود الجغرافية أو بالأصول اللغوية أو بعوامل الجنس والدين ، بل معنى الثقافة القومية أن تخرج الأمة على العالم ببعض هذه الأفكار العامة ، وأن تشترك فعلا فى بناء العالم وتعميره .

هل القومية تؤدى إلى السلام العالمى ؟

السلام هو أحد الأهداف القومية . إن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى إنها كادت أن تفقد مدلولها . ونحن نعنى بالسلام (انعدام الحرب) . ولكن من المؤكد أن هذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن نعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم أغراضنا الحالية ، لأن الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى وسائل زيادة التفاهم الدولى ، أو فى توطيد مشاعر الإخوة بين البشر ، فإن كل ما تريده تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

لقد أصبح السلام — فى القرن العشرين — هدفاً قومياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحربين العالميتين عاملا على ظهور رأى ينادى بأن قيام حرب عالمية ثالثة كفيل بالقضاء على البشرية . إن اختراع الأسلحة

الحديثة الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة ، جعل قيام حرب عالمية أمراً فظيعاً لا يجرؤ على الخوض فيه إلا رجل مجنون . إذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوصفه هدفاً قومياً .

إن السلام قد أصبح هدفاً فى حدّ ذاته ، يسعى الناس إلى تحقيقه بغض النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يكون السلام فى بعض الأحيان مكملا للأهداف القومية الأخرى ، وأحياناً يكون سابقة ضرورية من أجل تحقيق أهداف قومية أخرى . وعندما تكون دولة ما فى حالة تدهور فإن السلام ضرورى لها بوجه عام إذا أرادت أن تحتفظ بما تملكه من قوة وثروة كما أن نزع السلاح أو إتاحة حرية أكبر أمام التجارة أو استعادة مستعمرة بعد فقدانها أو تحقيق وضع من الأوضاع مستقبلا . كل هذه أهداف قومية يعضدها جميع المواطنين . ويبدو ذلك واضحاً فى خلال الأزمات ، فعادة لا يبدى غالبية المواطنين العاديين فى دولة ما فى الغالب اهتماماً كبيراً بالشئون الدولية ، ما لم تكن هناك على الأقـل أزمة ما يرون أنه من المحتمل أن تؤثر على مصالحهم المباشرة .

ناقش (برتراند راسل) إمكان إدماج الدول فى (دولة عالمية واحدة) فقال : نلاحظ ظاهرة هى ازدياد رقابة السلطات على الفرد زيادة لم تتح لها فى حدود جماعة ضيقة . ولم يحدث

فى التاريخ الماضى أن كانت هناك دولة كبيرة استطاعت أن تمارس السيطرة المطلقة على رعاياها . وما دامت هذه الأرض محدودة فإن هذا الاتجاه لابد أن ينتهى إلى وجود دولة عالمية واحدة إلا إذا قامت فى سبيله العوائق ، ولكن مثل هذه الدولة لن يوجد من ورائها عدو خاص تخشاه ، فيكون هذا الخوف مدعاة للتماسك بين أعضائها ، وبقاء هذا الخوف من الخطر وكونه الأداة النفسية والفعالة فى أفق الجماعة يجعل هذه الأداة تصبح عديمة الجدوى على فرض تحقيق الوضع الجديد ، وسيتبع هذا أيضاً اختفاء فكرة القومية ، وقيام حكومة عالمية واحدة .

هل من الممكن أن نصل إلى تعاون عالمى مثالى ؟

هل يمكن أن تكون هناك بيئة عالمية ؟ هل يستطيع العربى أو اليابانى أو الأمريكى أن يروا العالم ، بما فيه من أمم وعقائد وتقاليد ، كأنه ملكهم هم أنفسهم ؟ هل يستطيع العربى أن ينظر إلى (برنارد شو) أو (شكسبير) نظرته إلى (الجاحظ) أو (المتنبى) ؟ وهل يستطيع الإنجليزى أن يرى فى ابن رشد أو ابن خلدون مثل ما يجب أن نراه نحن فى (بيكون) أو (هربرت سبنسر) ؟ إن بيئة الفرد الاجتماعية قد لا تقتصر على البيئة المادية التى تحيط به ، بل يمكن أن تكون بيئة عالمية

إنسانية إذا هو نشأ على دراسة العالم أجمع من غير تقيد بهذه البيئة المادية المحدودة .

تحدث (برتراند راسل) عن أهمية التعاون العالمى فقال : لقد تبدت لى أهمية التعاون العالمى خارج محيط السياسة على أثر تجربتى الخاصة . فمنذ أمد قريب ، كنت أشتغل بتدريس علم جديد ، لا يستطيع تدريسه إلا رجال معدودون فى العالم . وكان عملى فى هذا العلم يعتمد على مؤلفات رجل ألمانى وآخر إيطالى ، وكان يفد إلىّ الطلاب من جميع أقطار العالم . من فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا واليونان واليابان والصين والهند وأمريكا . ولم يشعر أحد منا بالاختلاف القومى . كنا نشعر أننا خلاصة الحضارة ، نبنى طريقاً جديداً فى غابة المجهول البكر فكنا نتعاون جميعاً فى الواجب المشترك ، وكانت تبدو الحزازات الدولية والقومية والسياسة تافهة ، عابرة ، باطلة .

وليس معنى ذلك أن يكون التعاون فى العلم المجرد سبباً فى تقدم التعاون العالمى ، فإن المشاكل الاقتصادية والمسائل التى تتعلق بحقوق العمل ، وكل أمل فى الحرية والإنسانية . كل ذلك يتوقف قبل كل شىء على خلق نية عالمية حسنة .

وما دامت تسيطر الكراهية والخوف والشك ، وكل هذه العواطف البغيضة على حياة الأفراد ، فليس لنا أن نرجو تفادى طغيان العنف والقوة . يجب أن يتعلم الإنسان الشعور بالمصالح العامة للجنس البشرى الذى يصبح الكلّ فيه واحد ، بدلا من

المصالح الموهومة التى تنقسم من أجلها الدول . وليس من الضرورى أن نقضى على العادات والتقاليد التى تتميز بها الأمم المختلفة ، فإن هذه الفروق هى التى تجعل مقدور كل أمة أن تضيف لوناً خاصاً إلى تراث المدنية والحضارة .

تسعى الدول القومية إلى تعزيز قواها لصيانة مصالحها بشتى الطرق والوسائل ، ولكن المسئولين عن اتباع تلك السياسة فى بعض الدول الكبرى ينسون أنها قد تضر بمصالح أمم وشعوب ودول . وقد يؤيد الأفراد فى الدول التى تتبع سياسة السيطرة والتسلط والاستعمار سياسات حكوماتهم ويؤيدونها لما تنطوى عليه تلك السياسة فى رأيهم من تحقيق للمصالح الوطنية ، ولكنهم غالباً ما ينسون أو يتناسون ألوان الظلم والهوان التى قد تلحقها السياسة الاستعمارية وأساليب التسلط بالأبرياء الضعفاء من أفراد الشعوب المغلوبة .

إن الكتل البشرية المنتشرة فى هذا العالم الفسيح غير متجانسة ، ولن تكون متجانسة حتى ولا متساوية ، لا فى التكوين ولا فى المظاهر الأخرى كاللغات والألوان والنزعات والعادات . ولكن هذا التباين الكامن فى البيئات والقارات بين الأجناس لا يمنعنا من القول بأن جميع الناس فى كافة أنحاء العالم يتساوون فى الحقوق أمام القانون الإنسانى العام ، ولهم الحق الكامل فى التمتع بالحياة الحرة الطليقة من قيود العبودية . وكل أمة فى هذا المجتمع الواسع لا تتمتع بحق الحياة الغير المستعبدة

لا تستطيع أن تنتظم فى حلقة الأمم الحائزة على تكوين اجتماعى منسجم .

تحدث (برتراند راسل) عن وسائل السلام والتعاون العالمى فقال : إن الدين والأخلاق والمنفعة الاقتصادية ومجرد الإبقاء على الكيان البيولوجى للبشرية أو تتبع أسباب هذا الإبقاء تؤدى إلى التعاون العالمى . ولكن الغرائز القديمة التى توارثناها عن أسلافنا القبليين تهدد هذا التعاون . ولذا فإنه لتحقيق فكرة توحيد البشرية علينا توجيه الغرائز فى نطاق آخر ، وعن طريق تدعيم سلطات القانون .

لابد لنصل إلى (تعاون عالمى) من وجود نظام مستمر ثابت ، ولابد من إيجاد نظم ديموقراطية واشتراكية تكافح الفقر والجهل والمرض ، وتنمى فى نفوس الأجيال الجديدة نوعاً من (الولاء العالمى) ، ونوفق بينه وبين ولائنا للجماعات القومية . ولابد قبل ذلك أن نقضى على أسباب العدوان ، وأن تتنازل القوات الدولية الكبرى عن سياسة الاستعمار والتوسع .

٤ ـ العرب والعالم على مرّ العصور

عاش العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر بإخوانهم فى البشرية فى شتى أنحاء العالم وساهموا بنصيب كبير فى تطور الحضارة والمدنية فى شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائماً أن يتطوروا من حسن إلى حسن ، فكان للعرب دائماً رسالة عالمية إنسانية .

فى العصر الجاهلى ، قبل ظهور الإسلام ، كان العرب لا تتوحدهم قومية واحدة أو دولة متحدة ، فعاشوا متفرقين فى قبائل كثيرة العدد انتشرت فى شتى أرجاء شبه الجزيرة العربية ، لكل منها تقاليدها ونظمها وأساليب حياتها ، ولكنها حرصت كلها على أن تكون على صلة بالعالم ودوله الكبرى فى ذلك العصر .

ارتبطت جزيرة العرب بالممالك المجاورة بصلات تجارية كثيرة ، وعرفوا كثيراً من الطرق البحرية والبرية . وقامت التجارة فى أول الأمر على أكتاف اليمنيين ، ثم حل محلهم عرب الحجاز منذ القرن السادس الميلادى . فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق مصر والشام وفارس ، ولاشك أن هذه العمليات التجارية كانت

تؤدى إلى امتزاج فى الدماء واللغات والحضارات .

كانت الجزيرة العربية تقع بين دولتين عظيمتين ، الدولة الفارسية فى الشرق ، والدولة الرومانية فى الغرب . وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكن وقفت أمامهم الصحراء العربية القاحلة الموحشة ، فرأى الفرس والروم أن خير وسيلة لاتقاء شرّ العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، فيكونون حصناً يمنع غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم .

أما الرسول فقد عمل على أن يحقق نظرية عالمية الإسلام ، فبدأ بأن حارب العصبية القبلية ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، واعتبر نفسه رسولا لجميع البشر ، وهدف إلى تحطيم الحواجز الجنسية ، فكان يقول دائماً : (بعثت إلى الناس كافة) ، كما خطب فى حجة الوداع فقال (كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى) ، كما كان يقول : (اسمعوا وأطيعوا وإن تأمّر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) . وقرّب الرسول إليه كثيراً من العناصر غير العربية التى اعتنقت الإسلام ، مثل سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى . وحينما اضطهد المشركون المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة . وكتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول والممالك الكبرى المعاصرة له ، مثل كسرى فارس وقيصر

الروم والمقوقس زعيم القبط فى مصر ، ونجاشى الحبشة وغيرهم .
واصطدمت الدولة العربية الإسلامية التى قامت فى عهد الرسول
بالدولة الرومانية فى بعض المعارك على الحدود بين الدولتين .

وفى عهد الخلفاء الراشدين استمر العرب على اتصال دائم
بالعالم ، وأبرز أشكال هذا الاتصال الفتوحات العربية الإسلامية
فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فقد قضى العرب
المسلمون على الدولة الفارسية ، وانتزعوا بلاد الشام ومصر من
الدولة الرومانية . لم يفتح العرب الأمصار ولم يحكموها فحسب ،
بل حاولوا أن ينشروا فيها قوميتهم العربية . كما جاهد العرب
كثيراً فى الاحتفاظ بقوميتهم ولم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم
كما فعلت القبائل الجرمانية حينما استولت على روما ، وكما أضاع
المغول شخصيتهم لما تقدموا فى آسيا ، ولكنهم حفظوا قوميتهم
وفرضوا دينهم ولغتهم على الممالك والجماعات التى حكموها ،
وكان كل هذا بدون ضغط منهم .

ولكن رغم غيرة العرب على قوميتهم العربية ، فإنهم وجدوا
أنفسهم منساقين رغماً عنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالقوميات
الأخرى . ففى الأمصار المفتوحة ، تقبل كثير من الأهالى .
من غير العرب الإسلام ، ونزلوا الحواضر العربية ، وامتزجوا
بالعرب وأخذ هؤلاء جميعاً يشتركون فى الحياة السياسية والاجتماعية
والاقتصادية الجديدة ، ولم يكن العرب أكثرية إلا فى الجزيرة

العربية نفسها ، أما فى الأمصار المفتوحة فقد كان العنصر الأجنبي يمثل الأغلبية .

شمل الامتزاج جميع نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدينية . ولما كان العرب أقل حضارة من كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فقد اقتبسوا منها كثيراً من مظاهر الحضارة ، وخاصة النظم الإدارية . ولكن العرب فرضوا على هذه الاقوام شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فقد سادت اللغة العربية وهزمت اللغات الأخرى الأصلية ، وصارت لغة الحكومة والعلم .

يرى البعض أنه لم تكن هناك حضارة عربية ، وإنما كانت هناك حضارة أمم إسلامية ، ويذهبون إلى أن الأمم التى دخلت الإسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الإسلامية ، وإذا فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تنسب إلى العرب ،إنما يجب أن ترد وتعود إلى هذه الأمم الأجنبية التى خضعت للإسلام .

لم تكن عناصر سكان الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربية واعتنق الإسلام ، وانضم إلى القومية العربية . فقد كانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة

الفارسية لاتصالهما السياسي والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل . من المؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت فى أول الأمر مزيجاً من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر بعد امتزاجها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

كان هناك نظامان سياسيان كبيران : أولهما إمبراطورية عربية خلقها العرب ، وصار حكمها وفاقاً للنظم العربية نفسها ؛ وهذه الإمبراطورية انتهت بسقوط بنى أمية . وثانيهما الإمبراطورية الإسلامية العباسية التى كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتى حكمها جماعات إسلامية مختلفة منهم العرب .

كانت الدولة الأموية تعتز فى سياستها بالقومية العربية وتعمل من أجلها، فلم يتول القيادة والحكم إلا جماعة من أبناء البيوتات العربية ، وكانت جيوشهم كلها من أصول عربية . وتجلت سياسة الأمويين العربية فى تعصبهم للقومية العربية وصراعهم للقوميات الأخرى . وتجلى هذا الصراع فى عدة نواح : الجزية ، والعطاء ، والخراج ، والآداب ، والعلوم ، والفنون ، والوظائف .

تابع الخلفاء الأمويون سياسة الفتح ، فأرسل معاوية بن أبى سفيان جيوشاً غزت السند وأفريقية كما قام الحجاج فى عهد عبد الملك بن مروان بفتوح فى الأطراف الشرقية للدولة . وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم

وسمرقند ، كما فتحت الأندلس . وأدت هذه الفتوحات إلى تعريب لغوى وجنسى وأدى إلى صراع القومية العربية مع قوميات أخرى أجنبية .

كانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها ، وأصبح الإسلام هو الرابط بين العناصر المتنافرة التى تمثل قوميات عديدة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرة دينية .

لعبت اللغة العربية دوراً كبيراً فى مزج القوميات والحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة . فقد أدى استعمال اللغة العربية إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم ، إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى قوى .

أدى التنافس بين القومية العربية والقومية الفارسية فى العصر الأموى إلى ظهور الشعوبية ، التى بدأت تنادى بمساواة العرب والموالى ثم تطورت فى العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب .

فى العصر العباسى ، كانت الدولة على صلات وثيقة بشتى الدول العالمية ، صلات صداقة أو عداء ، أما علاقات الصداقة ، فقد تجلت هذه الصلات بوضوح فى القرن التاسع

الميلادى الذى شهد شخصيتين عظيمتين — يبرزان فى الشئون العالمية : إحداهما شخصية شارلمان فى الغرب ، والأخرى شخصية هارون الرشيد فى الشرق . ولقد كان هارون بلا مراء أحسن الرجلين وأكثرهما قوة ويمثل أعلى الثقافتين . ولقد كانت علاقة الصداقة المتبادلة بين هذين المتعاصرين تحركها بطبيعة الحال المصالح الشخصية ، فأما شارلمان فقد كان ينظر إلى هارون كحليف قوى ضدّ خصومه البيزنطيين ، وكذلك كان هارون يرغب فى أن يستغل شارلمان ضدّ منافسيه وأعدائه الخطرين جيران شارلمان وهم الأمويون فى الأندلس الذين نجحوا فى تأسيس دولة قوية زاهرة . ولقد وجدت هذه المشاركة فى العواطف القلبية أحسن تعبير ، كما قال كتاب الغرب ، فى تبادل عدد من السفارات والهدايا بين الفريقين .

أما صلات العداء فكانت بين العباسيين والبيزنطيين ، فقد استؤنف النزاع الذى استمر أكثر من قرن بين الدولة الإسلامية ، والدولة البيزنطية ، فى عهد المهدى (٧٧٥ — ٧٨٥) الخليفة العباسى الثالث ، وقاد الحملة ابنه وولى عهده هارون الرشيد ، فوصل بها إلى البسفور واضطرت الإمبراطورة إلى الصلح ودفع الجزية حتى إذا تولى هارون الحكم استمر فى الحملات العسكرية على الدولة البيزنطية ، واستولى على بعض مدنها . وفى سنة ٨٠٦ قاد المعتصم جيشاً ضخماً توغل به فى الأراضى البيزنطية واحتل عمورية مسقط رأس الأسرة المالكة .

فى العصر العباسى ، وصلت بغداد إلى درجة عظيمة من الازدهار ، وبخاصة فى خلافة هارون الرشيد ، ولم يكن قد مرّ على بغداد منذ تأسيسها أكثر من نصف قرن ، ولكنها مع ذلك نمت حتى أصبحت مركزاً عالمياً فى الثروة ، وحازت مكانة دولية رفيعة . لم يكن ينافسها فيها إلا بيزنطة فقط . فلما وصلت الدولة العباسية إلى ذروة مجدها لم يكن لبغداد منافس أو نظير فى كل مدن العالم .

فى سنة ١٢٥٣ وصل هولاكو إلى بغداد فخربها وقتل الخليفة المستعصم ، وقتل كبار الفقهاء ورجال الدولة ، واستولى على التحف والأموال ، وأحرق قبور الخلفاء وألقى بالكتب التى حوت التراث العربى فى نهر دجلة ، حتى قيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة .

ومما يدل على عظمة بغداد بالنسبة للعالم فى ذلك الحين ، تلك التحذيرات التى تقدم بها البعض إلى هولاكو التى كانت تنذر بالويل كل من يجترئ على انتهاك حرمة « مدينة السلام » أو إسقاط الخلافة العباسية . ولقد ذكر هولاكو أنه إذا قتل الخليفة فإن نظام العالم أجمع سينهار ، وتختفى الشمس ، ويمتنع المطر ولا تنمو النباتات بعد ذلك .

انحصر الإسلام من ناحية الشرق بهؤلاء المغول المتبربرين رماة النبل والفرسان ، ومن الغرب بالفرسان المدرعين من جنود الصليبيين . فى آخر القرن السابع الهجرى (٦٩٩ هـ) دخل

غازان التترى بلاد الشام فأعمل التخريب والنهب والسلب .

وفى أوائل القرن التاسع (٨٠٣ هـ) خرب تيمورلنك مدينة بغداد وذبح كثيراً من أهلها وخرب دمشق وحلب . وكما تعرض العرب لأخطار المغول ، تعرضوا لأخطار الصليبيين حتى ظهر صلاح الدين الأيوبى ، فبدأ زحفه فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وهزم الصليبيين فى حطين ثم طبرية ثم عكا ثم استولى على كثير من مدن الساحل من يافا إلى بيروت ، وتوج نصره بفتح بيت المقدس ، واستمر صلاح الدين يحاربهم حتى وقع الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سنة ٥٨٨ هـ .

وكما وقعت القومية العربية فى الشرق فى محنة ، لاقت القومية العربية فى الغرب محنة أخرى ، فقد كان سقوط بلاد الأندلس فى أيدى الإسبان ضربة عنيفة أصابت العروبة : فمن هذه البلاد انبعث نور العرب فى غربى أوربا ، فقد كانت الأندلس معقل القومية العربية فى قارة أوربا طوال ثمانية قرون ، وأدرك الإسبان ذلك فعملوا على إبادة العرب حتى إنهم لم يعفوا النساء والأطفال والشيوخ من القتل .

أباد الإسبان فى الأندلس كل أثر للعرب والقومية العربية ، فخربوا بيوت العرب وقضوا على الكتب العربية ، فقد أمر الكردينال كسيمنس أعدى أعداء الإسلام والعروبة فى سنة ١٥٠١ بإحراق الكتب العربية والمصاحف المخطوطة فى ميادين غرناطة ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للعرب

كما أباد جميع المخطوطات العربية .

وقد قام العرب بنشر الحضارة فى إسبانيا قروناً طويلة، ومن إسبانيا انتقلت الحضارة العربية إلى ممالك أوربا ، فكان جزاء العرب يوم ضعفت سياستهم ، أن يقتلوا شرّ قتلة ، وتباد آثارهم كل إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته إسبانيا من العرب، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت إسبانيا بعد فترة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . فيقول ستانلى لانبول : إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتأخرهم بعد أن خلت أرضهم من الإسلام . وقال لابريولا : لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت متأخرة جدا فى زمن القوط ، وجعل العرب إسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوربية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون قضتها إسبانيا فى ظل حضارة العرب .

أقبل الأوربيون على الاغتراف من معين الحضارة الإسلامية فى الأندلس . وها هو مثل يدل على ذلك : كان الإسبان المسيحيون يملأون أجواء أوربا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ونظمهم والعمران الذين أدخلوه على البلاد الإسبانية . إن أمثال هذه الروايات جعلت الأفئدة والأسماع والأبصار فى ديار الفرنج تتجه إلى الأندلس . أرسل الملك فيليب البافارى إلى الخليفة (هشام الأول) يسأله السماح

له بإيفاد هيئة تشرف على أحوال الأندلس ودراسة نظمها وثقافتها حتى يتمكنوا من اقتباس ما يفيد بلادهم . فوافق الخليفة على هذا الطلب . وأرسل الملك الجرمني وفداً برئاسة وزيره الأول (ويليمين) الذى سمّاه الأندلسيون (ولبم الأمين) . ثم أخذ بعض ملوك أوربا ينسجون على منوال الملك البافارى . فأرسل ملك إنجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة تتألف من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى (أشبيليه) يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى .

ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى قدمت من فرنسا وإيطاليا والبلاد المنخفضة ، ملأت معاهد غرناطة وأشبيلية ، واقتبست من الحضارة الأندلسية كثيراً من العلوم والآداب والفنون . ولم تكتف أوربا بإرسال مثل هذه البعثات العلمية بل قامت بعض الدول الأوربية فى أواسط القرن التاسع الميلادى وما يليه تستأجر الأساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل وإحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم فى بلدانها .

إن أعظم جسور نهر التيمس واسمه نهر Heycham أنشأه مهندس عربى وسماه على اسم الخليفة الأندلسى هشام الثانى . إن قباب الكنائس الكبرى فى باڤاريا من صنع العرب . إن الأسطول البحرى الهولندى العظيم الذى قهر العمارة الإنجليزية على الشواطئ الإسبانية فى معركة (ليزبونه) عام ١١٥٢ من صنع العرب ، أما قائده فهو (أميرال البحر طارق) . إن

صناعة القمصان فى أوربا عرفها الأوربيون عن العرب ، وما كلمة (Chemise) إلا (قميص) . إن مصانع الأندلس كانت تمد كل الدول الأوربية بمختلف أنواع الأسلحة والورق . إن علوم الطب والصيدلة والجبر والفلك والكيمياء والجغرافية فى أوربا قامت على أسس عربية صميمة .

أدىّ الفتح العثمانى للبلاد العربية إلى نهاية مرحلة اقتباس الأوربيين من الحضارات العربية والشرقية ، فقد بدأت فى هذه البلاد عهود ظلام وجهل . فقد وضعت الدول العثمانية حاجزاً منيعاً يفصل العالم العربى عن أوربا خوفاً من امتداد أطماع الدول الأوربية إلى هذه الولايات العثمانية . لقد بدأ الاستعمار العثمانى للعالم العربى فى سنة ١٥١٦ ، أى فى القرن السادس ، واستمر إلى سنة ١٩١٤ فى القرن العشرين . وهذه القرون كانت قرون النهضة فى أوربا عرفت فيها الانقلاب الصناعى ، وتطور مبادئ الحكم من الاستبداد إلى الديمقراطية ، وظهرت الدساتير والمجالس النيابية ، وتطور المجتمع الأوربى نتيجة ظهور المبادئ الاجتماعية الجديدة .

ثم بدأ غزو الحضارات الغربية للعالم العربى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد جلب الفرنسيون إلى مصر والشام طريقتهم فى المعيشة ، وأسلوبهم فى الحياة ، وحضارتهم الخاصة . واصطدمت هذه الحضارة والمدنية بمدنية السكان الأصليين وطريقتهم فى الحياة . وقد ازداد الخلاف حدة عندما أضاف

الفاتحون إلى حضارتهم جوانب مادية ووسائل الترف . وكان تأثير الأساليب الأوربية على السكان تأثيراً سيئا ، مفسداً للآداب ، ولذا كان من الطبيعى أن يبذل هؤلاء السكان جهدهم لصدّ تيار هذه الحضارة الأوربية .

شمل صراع العرب للحضارة الأوربية كل مظاهر الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بل الدينية . واتخذ هذا الصراع والصدام أشكالا مختلفة متنوعة . أولا رأينا حركات سياسية عديدة تصطبغ دائماً بصبغة دينية . ثانياً شهدنا حركات وطنية ظهرت نتيجة للضغط الأوربى . ثالثا رأينا نمو الصناعة الوطنية ، ثم رابعاً لمسنا المقاومة الوطنية للحكم الأجنبى .

نمّت هذه الحركات السياسية والوطنية المختلفة خوف السكان من كل شىء أجنبى ، سواء الأفكار أو الناس ، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الأوربيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوربى الذى يناضلونه أو يحاربونه . ونتيجة لارتباط الحضارة الأوربية بالحكم الاستعمارى الأوربى المقيت فى أذهان عرب مسلمى شمال أفريقية — مثلا — فقد ولدت هذه الحركات كرها للأجانب عامة وللأوربيين خاصة ، بصرف النظر عن كل ما يمت إلى الحضارة والثقافة الأوربية .

لقد فشلت الحضارة الأوربية فى إقرار السلام وتوطيده ، بل إن تقدم العلوم أدىّ إلى الحروب لا إلى السلام ، بل إن إفلاس المثل العليا ليس إلا نتيجة منطقية للحضارة الأوربية

القائمة على عبادة المادة . بل إن الحضارة الأوربية ركزت كل جهودها وثمار فكرها فى ناحية واحدة هى (الاستغلال) ، بل إن الاتجاهات الحديثة فى السياسة التى أخذت بها الدول الأوربية للوصول إلى السلام ، إنما هدفها الأسمى هو ضمان بقاء (الاستغلال) وتنظيمه .

٥ ــ القومية العربية والاتجاهات العالمية

القومية العربية والسلام العالمى :

يرى كثير من المفكرين أن الفروق بين الأمم والشعوب إن هى إلا فروق عارضة سوف تتلاشى بمرور الزمن ، ويرون أن العالم لا بد أن تكون غايته السلام وتعاون القوميات ، بحيث يصبحوا جميعاً أسرة واحدة يجمعها الحب والتعاون ويرفرف عليها السلام العالمى . وحاول هؤلاء المفكرون أن يبنوا نظاماً عاما يشترك فيه الجميع ، لا يفرق بينهم جنس ولا دين ولا لغة ولا ثقافة ولا ثراء ، فيعيش العالم فى سلام دائم تنتظم فيه القوميات وتتعارف فيه الشعوب وتتنازل فيه الدول العظمى عما تدعيه .

أصبح السلام ــ فى القرن العشرين ــ هدفاً قومياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحرب العالمية الاولى ، وهو أول صراع هام وقع بين الدول المتقدمة فى الصناعة بمثابة صدمة للعالم ، فساد شعور حينذاك بأن قيام حرب أخرى من هذا النوع كفيل بالقضاء على البشرية .

إن السلام ، أو على الأقل عدم قيام حروب عالمية ، قد أصبح هدفاً فى حدّ ذاته ، يسعى الناس إلى تحقيقه بغض

النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يقال إنه لا يوجد شيء أسوأ من ذلك التدمير الشامل الذى قد ينشأ لو اشتبكت الدول الكبرى التى تملك أحدث الأسلحة فى حرب حتى النهاية . ومع أن الكثيرين يعتنقون هنا الرأى ، إلاّ أنه لا ينال موافقة جماعية والزمن وحده هو الخليق بأن يثبت ما إذا كان هذا الرأى سيتلاشى ، وتواصل حكومات الدول الكبرى أن تنظر إلى الحرب بصفتها إمكانية حقيقية ، وهى تستعد لخوضها وكأنها جزء هام من سياستها ، وحتى الآن لا يعتبر السلام إلاّ واحداً من أهداف عديدة ، ورغماً من أهميته إلاّ أنه ليس بالضرورة أسمى هذه الأهداف .

تحول الشعور الاجتماعى إلى روح قومية ، وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الشعور الاجتماعى الفطرى شعوراً عالميا . وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الولاء القومى جزءاً من ولاء عالمى هام .

إن العالم كوحدة عامة لم يرتق بعد إلى ما ارتقت إليه القوميات . فكل وحدة قومية لها نظام مستمر ينتقل من جيل إلى جيل ، وليس للعالم مثل هذا النظام المستمر . وأفراد الوحدة القومية يمتلئون شعوراً بوجود وحدتهم ، ولكن قليلا منهم من هو إنسانى يشعر بوجود الإنسانية كوحدة عامة . والقوميات تكافح بعضها البعض ، لكن العالم لم يستكشف بعد الرذائل والأمراض التى يجب أن يعمل على كفاحها . وللقوميات أديان وتقاليد

وعادات يدرسها أفرادها ويتعصبون لها ، ولكن لم يدرس تقاليد العالم إلاّ القليل من الفلاسفة والعلماء . والقوميات يسرى بين أفرادها النظام ويحكم أفرادها القانون، ولها قواعد منسقة فيما يتصل بالعمل والبطالة ، ولكن ليس فى العالم نظام عام ، وليس يحكم الأمم قانون واحد . ولذلك نقول إن العمل على تحويل القوميات إلى عالم يسوده القانون والسلام سوف يكون عملا عسيراً شاقا .

ولكن السلام أصبح ضرورة قومية ، فالمواطن عضو فى وحدة بشرية هى الأمة ، والأمة عضو فى وحدة بشرية كبرى هى العالم . والمواطن يحتاج إلى الأمة لحمايته وكفالة سعادته والأمة تحتاج إلى غيرها من أمم العالم لمعونتها ضد العدو الطبيعى والعدو البشرى ولضمان الكفاية الإنتاجية . إن الأمة فى العصر الحديث لا تستطيع أن تصدّ عدوان الطبيعة ، من فيضان أو زلازل أو قحط أو وباء ، فهى فى حاجة إلى تكاتف عدد من الأمم معها حتى تتحاشى خطر هذا العدو أو تصدّه ومن هنا نشأت المؤسسات العالمية لمكافحة الجراد والأوبئة ، والفيضانات وغيرها . وهى لا تستطيع وحدها أن تصدّ هجوم العدو ، فهى فى حاجة إلى التحالف مع سائر الأمم حتى تتحاشى خطر الهجوم .

إن الهدف الذى يستهدفه المجتمع البشرى العالمى الآن قد أصبح واضحاً جلياً ، وهو يتلخص فيما يأتى : « تدعيم السلم العالمى الدائم وتحقيق الرخاء الشامل ، أى رفع مستوى المجتمع

المادى والروحى إلى أعلى الدرجات التى يمكن أن تصل إليها الإنسانية كافة » .

وهذا الهدف على قصره وبساطته ينطوى على معان كثيرة ، ويتطلب أعمالا جبارة وحركات نشيطة فى جميع ميادين الحياة ، إذ أن السلم مثلا لا يتحقق ولن يدوم إلا بنشر وإنماء المحبة والمودة والأخوة العامة بين الناس وبين الأمم والرخاء لا يتحقق ولا يمكن أن يكون شاملا إلا بتوجيه أفراد المجتمع جميعاً إلى أعمال منتجة مفيدة لأنفسهم وللآخرين ، وذلك لكى تكثر وتتضاعف كمية السلام والخدمات حتى تكفى لسد حاجات الجميع ولإشباع رغباتهم . ورفع مستوى المجتمع المادى والروحى معناه إنعاش الحضارة والمدنية وتعميم الثقافة والتعلم بين سائر الطبقات ولجميع أفراد المجتمع ، وتوفير أوسع الأوقات للجميع ليقوموا معاً بهذه الحضارة العظيمة، وهذه المدنية الشاملة لجميع ميادين الحياة .

بين العرب اتجاهات عالمية تحاول تخطى المجتمع القومى العربى للوصول إلى المجتمع العالمى، فجميع البشر يمثلون أسرة إنسانية كبيرة يجب أن تعيش فى مجتمع عالمى واحد كبير . وينادى هؤلاء بأنه حتى نستطيع بناء الوطن العربى ، والتهيؤ لحمل الرسالة الإنسانية ، فإننا محتاجون إلى السلام ، فى أنفسنا وفى بلادنا وفى العالم كله .

إن هذا السلام لن يوجد ما دام هناك معسكران يعد ان

للحرب ما استطاعا من عدّة ، ولذلك نستنكر ، نحن أبناء الوطن العربى ، وجود المعسكرين الحاليين وما يقومان به من إنشاء الأحلاف ، وتأليب القوميات بعضها على بعض ، ونحن العرب نأبى أن ننضم إلى أى حلف عسكرى مهما كان نوعه ومذهبه لأننا بذلك نزيد سعير الكراهية المدمرة ، ونقضى على نهضتنا الوطنية الحرّة والعمران البشرى بأجمعه .

إن السلام لن يستتب فى العالم ما دام هناك غزاة واستعمار ، وقد آن للبشرية أن تشفى من مرضها الوبيل هذا ولذلك فإن على العرب أن يعملوا دائماً على إزالة كابوس الاستعمار عن كل بقعة فى العالم ، سواء أكان هذا الغزو الاستعمارى سياسيًّا أو عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا ، لأن مجرد وجوده يخلق بؤرة جرثومية تعرّض جسم العالم كله للعدوى والهلاك . وإن العرب الذين عانوا كثيراً من الاستعمار عليهم أن يدافعوا عن حريات الأمم جميعاً وحقها المطلق فى تقرير المصير ، والدفاع عن حقوق الإنسان والقضاء على كل تمييز عنصرى أو جنسى .

ولكن السعى لتحقيق السلام العالمى لا يمكن أن يقوم على أكتاف الوطن العربى وحده ، ولا بد من التعاون مع الأمم الراغبة رغبة صادقة فى السلام . إن الجمهورية العربية المتحدة ، والهند ، ويوغسلافيا ، من أبرز الأمم الداعية إلى السلام وأعمقها إيماناً به ، وأكثرها مضياً فى سبيله . وهذه الدول ، وغيرها من الدول المحبة للسلام ، يمكن أن تكون حركة قوية تقف أمام

المعسكرين الدوليين وتفرض عليهما التخلى عن سياستهما الاستعمارية ومطامعهما الدولية . ومن المؤكد أن مؤتمر باندونج الآسيوى الأفريقى كان أعظم دعوة عرفها التاريخ لإقرار السلام .

إن العمل لتحقيق السلام لا يتنافى مع القومية ، فالقومية لا تعنى الانعزالية أو الانكماش فى داخل حدود المجتمع القومى وقطع كل صلة للأمة بالعالم . إن المشاكل الإنسانية ، والظلم ، والحروب ، لا ترجع أبداً إلى الوجود القومى ، بل ترجع فى أسسها إلى الأنظمة السائدة فى المجتمعات القومية ، كما لا ترجع الاتجاهات العنصرية أو الاستعلائية إلى الوجود القومى أيضا ، بل ترجع إلى فقدان الوعى القومى الإنسانى الصحيح . بالإضافة إلى أن القومية هى وجود اجتماعى تاريخى متفاعل ، وليست تراكماً بشرياً جامدا ، ينعزل فى حدود صلبة تمنع الاتصال .

القومية العربية والإنسانية :

إن القومية العربية لا تتعارض مع الإنسانية ، فالقومية العربية كوجود اجتماعى تاريخى للأمة العربية لا بد أن تقوم ، ولا بد أن تستند إلى أسس إنسانية عميقة ، يتصل من خلالها الشعب العربى اتصالا صحيحاً طبيعيا بالإنسانية كلها ، وينفعل انفعالا صادقاً بآلامها وآمالها ومشاكلها وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال إلى عمل إيجابى ومواقف عملية .

إن القومية المعوجة تؤدى إلى إنسانية معوجة ، والإنسانية الحقة تبتدئ من القومية الحقة . ولهذا فإن الطريق إلى الإنسانية ، لا يمكن أن تبتدئ إلاّ من الوطن القومى . فالإنسان هو ابن مجتمعه ، والإنسان مهيأ بحكم ارتباطه القومى بمجتمعه وأرضه وتاريخه ولغته وثقافته ، لأن ينفعل بآلام قوميته وآمالها قبل أن ينفعل بآلام وآمال القوميات الأخرى . وهو عن طريق هذا الانفعال القومى أولا ، يصل إلى الانفعال الإنسانى ثانياً . وهنا لم يعمل الإنسان على تحقيق إنسانية المجموع القومى الذى يحيا فيه ويربطه التاريخ به ، لن يستطيع أن يعمل على تحقيق إنسانية الإنسانية جمعاء .

إن القومية ذات المضمون الإنسانى الإيجابى هى الطريق الوحيدة الإيجابية للإنسان ، وهى الطريق الوحيدة للسلام الحقيقى الشريف . لا إنسانية حقة بغير قومية حقة ، ولا قومية حقة بغير محتوى إنسانى عميق . والقومية ليست نزعة ضيقة انعزالية ، فالقوميات الواعية هى وحدات اجتماعية متفاعلة ، تأخذ وتعطى ، وتزيد الحضارة الإنسانية غنى وخصباً وشمولا ، والتجربة الإنسانية عمقا .

وهذه الأسس القومية تفترض أن تفهم القومية العربية على أنها ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية ، وليست قومية انعزالية منكمشة ، وأنها الطريق السليمة للإنسانية السليمة .

إن الفهم الصحيح للقومية العربية كوجود اجتماعى ، لا بد

أن يوصلنا حتما إلى رفض الفكرة العنصرية والجنسية فى تفسير القوميات . لأن أى وجود قومى إنما يقوم على تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والأهداف وليس على تخيلات وهمية عن الدم والجنس ، وإن الوحدة القومية هى هذه الوحدة الاجتماعية التاريخية العامة ، وليست الدموية العنصرية . فالاتجاه القومى النازى ، قد ابتعد ابتعادا كبيراً عن الفهم العلمى الصحيح للقوميات ونشوئها ، وهو فى الواقع اتجاه يمثل الاختلال فى توازن القومية أكثر مما يمثل أى اتجاه قومى صحيح . والفهم الصحيح للوجود القومى العربى . سيوصلنا حتما إلى رفض الاستغلال والتعصب الذى جاء به الاستعلاء الفاشى الذى يدعو إلى احتقار الفرد وإنكار حقه فى الحياة ما لم يكن من أفراد النخبة الممتازة .

كما أن الفهم الصحيح الواعى للوجود القومى العربى سيوصلنا إلى أنه لا يمكن أن نتوصل إلى مفهوم الأمة الصحيح ، والوحدة القومية الحقيقية ، إلا على أساس احترام الإنسان وتقديسه واحترام حقه فى الحياة ، وإلا على أساس تحقيق المساواة بين أفراد الأمة الواحدة لا تصنيفهم إلى طبقات تعطى حق الحياة للبعض ، وتعتبر البعض الآخر كميات مهملة . وإلا على أساس تحقيق التوازن فى العلاقة بين الفرد والمجتمع . إن هذا الفهم لمعنى الأمة والوحدة الحقيقية ، والقائم على إزالة الاستعلاء فى نطاق المجتمع القومى ، سيهيئ بدوره لإزالة الاستغلاء نحو القوميات الأخرى .

الوطن العربى جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشرى . ووطننا العربى لا يمكن أن يعتزل سائر العالم لأنه جسر بين ثلاث قارات ، وإن قوميتنا لن تستطيع أن تحيا لنفسها ، لأن كل قومية حاولت جعل ذاتها غاية لها كانت تنتحر . ولذا يجب أن نعتبر القومية العربية نفسها فلذة من فلذات المجتمع البشرى ، ومرحلة نحو تحقيق الوحدة العالمية .

إن كل قومية طرحت الرسالة الإنسانية جانبا ، وهى تظن أنها بذلك تحفظ جهودها من أن تتبدد فى التضحية لأجل البشر وأنه يحفظ كيانه من أن يذوب إذا تم الامتزاج فى أخوة شاملة . ولكن كل قومية سارت فى هذا الطريق ، كانت الخاسرة لأنها تخلت عن الرسالة الإنسانية .

ونحن ، أبناء الوطن العربى ، نذكر بفخار أنه فى هذا الوطن ولدت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً حركة كانت لها رسالتها الإنسانية الرائعة ، رسالة تؤمن بالخالق العظيم رب العالمين ، وبأن الدعوة إلى سبيله تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبأن البشر سواسية يبتغون من فضله ويلتحفون برحمته ، فكانت دعوة إلى توحيد الإنسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بإله واحد يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلاّ بالتقوى .

إن الإنسانية والعالمية لا تدعو إلى الكونية المطلقة (Comop- olitanism)أو اختفاء كل شخصية قومية . فمثل هذه الكونية تؤدى

إلى الخسارة أكثر مما تؤدى إلى النفع العام . فالروح الإنسانية العالمية التى تدعو إليها روح أخرى تضاف إلى حب الوطن وليست شيئاً مأخوذاً منها . وكما أن الشعور بالوطنية لا ينقص من الشعور بحب الأسرة كذلك الروح العالمى الإنسانى لا يجب أن يحرمنا من الشعور بالقومية .

ولكن نوع هذا الحب القومى سيتغير ، فلن تصبح الأشياء التى يشتهيها المرء لقومه هى الأشياء التى يمكن تحصيلها على حساب الآخرين . ولكنها ستكون الأشياء التى تعظم بها البلد وتسمو بالنسبة لتقدم العالم كله . فسيرغب الفرد إذن أن تصبح بلاده عظيمة فى فنون السلام ، وأن تكون عادلة كريمة سامية ، وسيرغب فى أن تساعد البشر جميعاً فى طريقهم إلى عالم من الحرية أفضل ، ومن التعاون العالمى الذى لا يمكن أن نرجو للإنسان سعادة بدونه ، ولن يرغب لدولته الانتصارات العنيفة العابرة فى التملك والسيطرة . وسيرى أن هذه الروح لا تشمل الأخلاق السامية فحسب ، ولكنها تشمل الحكمة الحقة كذلك ، وأنها الطريق الوحيدة التى تسلكها الأمم المتنافرة المتخاصمة فى عبورها إلى حياة يكون النماء فيها ممكنا .

إن الرسالة العربية الإنسانية تنمو مع نمو نضالنا الآن ، وتتبلور من خلال تجاربنا اليومية ، وهى فى جوهرها تعبير عن إنسانية الأمة العربية ، تستهدف إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق القومى والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة ، وهى

فى جوهرها تعبير عن إيجابية الأمة العربية وبعدها عن التعصب والانعزالية وتوقها للعطاء ، وتعبير عن حيوية الأمة العربية ، لأن هذه الرسالة هى عملية أخذ وعطاء ، تتأثر بالتجربة الإنسانية كما تؤثر بها من خلال تجربتها القومية ، وهى تعبير عن إدراك عميق لمعنى وجود الأمة ومبررات وجودها .

٦ ــ الجامعة العربية والهيئات العالمية

الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة :

الوطن العربى جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشرى ، والجامعة العربية هيئة من الهيئات الدولية التى تعمل من أجل السلام . والسلام ليس كلمة تقال أو حلما يداعب الأجفان ، ولكنه عمل متواصل قائم على تقارب أمم الأرض وتفاهمها وتعاونها . ولذلك ستعتبر الأمة العربية نفسها صديقة لسائر الأمم فى العالم ، وتقيم معها علاقات تعاون وتعامل فى كل ميدان : اقتصادى وثقافى واجتماعى . فالتجارة بين الدول يجب أن تكون حرّة متبادلة ، والتعاون الزراعى يجب أن يكون على أكمل وجه بين الدول ؛ وتكون الفرص متاحة لكل دولة حتى تنمى مشاريعها الصناعية وتقيم كيانها الاقتصادى . وتفتح أبواب البلاد كافة أمام وسائل نشر الثقافة وتبادلها ، من كتب وصحافة وسينما وإذاعة . ويتم تبادل البعثات الدراسية والعلمية بين جميع الأقطار ، وتكون المدارس والجامعات فى العالم شبكة متصلة الحلقات ، ويتم تبادل الآراء والتجارب والأفكار فى يسر وحرية ومودّة . أما التقارب الاجتماعى فيكون فى تشجيع السياحة والتزاوج والاختلاط ، بالأشكال التى

تحفظ كرامة الأفراد والمجتمعات .

هذا التقارب والتفاهم والتعاون ينتهى جميعه فى ذروة كبرى ، هى تحقيق الوحدة العالمية بحضارتها الإنسانية . وقد قام البشر بعدة محاولات لتحقيق هذه الوحدة ، فكانت عصبة الأمم المنحلة ، ثم هيئة الأمم المتحدة القائمة ، وكانت الجامعة العربية ، وأخيراً مؤتمر باندونج .

لا شك أن هيئة الأمم المتحدة أكثر تحقيقاً للسلام من عصبة الأمم . فقد جمع ميثاق الأمم المتحدة بين الاتجاه المثالى والتقدير للواقع ، فإنه لا ينظر إلى السلام الدولى كوضع مطلق دائم ، بل يعتبره وضعاً نسبياً يجب تدعيمه من وقت لآخر والمحافظة عليه بوسائل مختلفة . أما نظام عصبة الأمم المتحدة السابق فيقوم على أساس قانونى ليس للسياسة فيه المجال الواسع الذى يستحقه . كما أن هيئة الأمم المتحدة أصبحت عالمية أكثر مما كانت عليه عصبة الأمم من ناحية الأهداف والاغراض والأساليب لكل منهما ، إذ كانت الجهود التى بذلتها الدول والقرارات التى اتخذتها والأهداف التى ترمى إليها فى الفترة بين الحربين العالميتين تنحصر فى الدول الغربية ، أما دول الشرقين الأوسط والأقصى فقد أهملت كل الإهمال ، بل قد أصبحت هذه البلدان سبباً للمنازعات الدولية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية . أما جهود الدول وقراراتها وأهدافها التى بدأت فى تنظيمها منذ نشوب الحرب العالمية الثانية ، فقد روعى فيها

تطبيقها على جميع شعوب العالم كافة بدون تمييز ، وميثاق الأمم المتحدة يشير إلى أن الهيئة لا تقبل إلاّ الدول المحبة للسلام، أى الدول التى ترى الهيئة أنها على استعداد تام للقيام بالالتزامات المقرّرة فى الميثاق .

من واجب الأمة العربية إثبات وجودها فى كل منظمة دولية ، بشكل يتيح الاستفادة من الجميع والتعاون مع كل دولة ، ويضمن لها عدم الخضوع لأية قوة ، ويحفظها بشخصيتها التى لا تعتمد فى بقائها على تقلبات التوازن الدولى ، وإنما تعتمد على وعينا وإرادتنا وقوتنا ، لأن هذه الأشياء الثانية بالنسبة لنا ، هى التى ستقرر مصيرنا .

من واجب العرب عامة ، والجامعة العربية خاصة ، أن يسعوا لجعل هيئة الأمم المتحدة مجمعاً عالميا ، يضم أمم الأرض ، حيث تتبادل الآراء والتجارب فى حرية مطلقة من الكبت والنفوذ ، وتتعاون على قدم المساواة فى كافة الميادين ، وتتعامل مع بعضها وفقاً للقواعد الأخلاقية ، وتكون الثقة واحترام الحقوق متبادلا بينها . ومن ورائها جميعاً سيقوم رأى عالمى واع خير يسندها ويكلؤها ويوجهها نحو المستقبل المجيد .

أصبح لجامعة الدول العربية شخصية محترمة ، وكلمة مسموعة ، وأصبحت كتلة دولية يحسب حسابها ، وتنطبق عليها المادة (٥٢) من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، ومن البديهى أن كل تكتل واتحاد يؤدى إلى القوة والمجد .

قامت الجامعة العربية على أساس ألا تقتصر جهودها على الدول التى انضمت إلى عضويتها ، فما زال هناك أقطار عربية ترزح تحت نير الاستعمار وتتطلع إلى التحرر والاستقلال حتى تنضم إلى شقيقاتها العربيات ليعملوا سويًّا من أجل مجد العرب وخير العالم . فمدى نشاط الجامعة العربية يمتد من المحيط الأطلسى غربا إلى الخليج العربى شرقا ، كما يمتد إلى عرب الأمريكتين ، فى الأرجنتين مثلا نحو ٤٠٠ ألف عربى من بينهم من يتولون مناصب كبرى وعضوية المجالس النيابية . وليس هناك ما يمنع من أن تتعاون دول الجامعة العربية مع الدول التى تربطها بها روابط تاريخية وثقافية مثل إيران، وأفغانستان، وتركيا ، واتحاد الدول العربية لم يقم على تعصب عنصرى . كما على الجامعة العربية أن تعمل على كفاح الاستعمار فى كل مكان ، وأن تعمل على تحقيق السلام العالمى ، ومنع قيام حرب عالمية ثالثة تلك التى لا شك أنها ستؤدى إلى هلاك البشرية. وعلى الدول العربية أن توحد أصواتها فى هيئة الأمم المتحدة حتى يصبح صوتا واحدا داويا ، فيفوز الأعضاء الذين يرشحونهم .

كلما زاد تماسك دول الجامعة العربية عظم الخير الذى يعود عليها ، وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى سواعدهم وعلى إمكانياتهم وحيويتهم ، حتى يصبحوا أقوياء فينتزعوا حقهم انتزاعا . فالاعتماد على العدل الدولى عبث ، إذ لم يزل ميثاق الأطلنطى والنداء بالحريات الأربع وقيام نظام للعالم خير من

عصبة الأمم من القضايا التى يعوزها التطبيق ، وقد رأينا كيف خذلت الهيئات الدولية بعض القضايا العربية . وإن كان هذا لا يمنع العرب من التعاون مع الهيئات الدولية المختلفة .

الجامعة العربية واليونوسكو :

اقترحت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . المعروفة باسم اليونوسكو . سنة ١٩٤٨ إنشاء مركز ثقافى خاص بالشرقين الأدنى والأوسط . ورأت أن يشمل هذا المركز بلاد الجامعة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان ،وأن يعمل لضمان تعاون البلاد المذكورة بعضها مع بعض ، فى ميدانى التربية والثقافة . بمساعدة اليونسكو .

وقد قدم مشروع هذا المركز إلى جامعة الدول العربية ، ووضع على بساط البحث فى اللجنة الثقافية التابعة للجامعة ، وعارضها بعض الأعضاء وفى مقدمتهم العالم الجليل الأستاذ ساطع الحصرى ، الذى عارضه من الوجهتين العلمية والقومية .

أما من الوجهة العلمية ، فلأن الثقافة لا تتبع التقسيمات الجغرافية — الطبيعية أو السياسية — وأن حدود ما يمكن أن يسمى المناطق الثقافية تختلف عن حدود ما يسمى مناطق جغرافية ، فإنشاء مراكز ثقافية على أسس جغرافية يخالف طبيعة الثقافة مخالفة كلية .

ومما يزيد هذه المخالفة خطورة ، أن المنطقة التى يسمونها الشرق الأدنى والأوسط ،هى منطقة اصطلاحية خططت حدودها سياسة الدول الغربية ، وفقاً لمصالحها الخاصة ، من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار اختلاف سكان أقسامها المختلفة من حيث اللغة والثقافة والمصالح والتقاليد . فإذا أرادت اليونسكو أن تنشئ مراكز فرعية ، يجب عليها أن تفعل ذلك على أساس الخصائص الثقافية ، لا على أساس التقسيمات الجغرافية والسياسية .

أما من الوجهة القومية ، فالثقافة فى البلاد العربية قد تبلبلت إلى أقصى حدود التبلبل ، من جرّاء سيطرة الثقافات الأجنبية المختلفة على مختلف أقطارها ، فهى الآن فى أشد الحاجة إلى لمّ الشعث والتحرر من سيطرة الثقافات الأجنبية ، لكى تكسب شخصية واضحة ، فتصبح عربية عصرية بكل معنى الكلمة . فلا يجوز لنا أبدا . والبلاد العربية فى هذه الحالة من التبلبل الثقافى أن يعود العرب فيسعوا إلى زيادة الاتصال بالثقافة التركية والإيرانية .

يرى الأستاذ ساطع الحصرى ، وهو فى مقدمة المشتغلين بالقضايا العربية ، أن لا يجوز للعرب أبداً أن يوجهوا جهودهم نحو مركز ثقافى لا يشمل إلاّ جزءاً من البلاد العربية ، أو يحشر ثقافة هذا الجزء نفسه مع ثقافات تركيا وإيران ، فيعرقل بذلك نموها نمواّ سويا ، ويبعدها عن الطرق المؤدية إلى استكمال وسائل الاستقلال والازدهار .

يجب على العرب أن ينضموا إلى الهيئات الدولية التى تعنى بالعلم والتربية والثقافة ، لكى يرتووا بزلال العلم والمعرفة والثقافة من منابعها الأصلية ، ويجب عليهم أن يسعوا إلى تأليف منظمات علمية وثقافية تشمل جميع البلاد العربية . ولكنه لا يجوز لنا أن نسهم فى تكوين مركز ثقافى يشمل البلاد المعروفة باسم (الشرق الأوسط) ونتجاهل بذلك شخصية عالمنا العربى .

أحالت اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية هذا المشروع إلى الدول العربية نفسها ، مما أدى إلى إهمال المشروع . وتضايق (جوليان هكسلى) مدير اليونسكو من عدم إقرار المشروع ، فكتب فى التقرير السنوى الذى قدّمه إلى مؤتمر اليونسكو عدة عبارات جارحة وصف فيها المعارضة التى لاقاها المشروع بالمخاتلة ، وبالإقليمية الضيقة القائمة على أساس الثقافة العربية وحدها .

وكتب الأستاذ ساطع الحصرى رسالة طويلة إلى (جوليان هكسلى) يبين له أسباب رفض المشروع ويرد على اتهاماته . ونقتبس بعض فقرات من هذه الرسالة ، فهى تصوّر تماماً موقف العرب من اليونسكو : « إن إحداث أمثال هذه المراكز الإقليمية من الأمور التى يصعب تآلفها مع الروح التى كونت اليونسكو . لماذا نقدم على إحداث « حظائر إقليمية » داخل نطاق اليونسكو ما دمنا ندعو جميع أمم الأرض إلى التعاون والتكاتف فى ميادين العلم والتربية والثقافة ؟ إن العلم بطبيعته

عالمى ، فجميع الأمم تستطيع أن تتعاون فى هذا المضمار ، بدون أى تحفظ كان . ولكن التربية بطبيعتها قومية . وهى تبقى قومية ، حتى عندما تستوحى أعمالها من فكرة التفاهم الإنسانى ، فتتغلغل فى سبيل التعاون الأممى . وذلك لأن الفكرة الأممية ترمى إلى تنوير التربية وتوجيهها ، دون أن تنزع عنها صفتها القومية . ولهذا السبب يستطيع أن نؤكد أن التربية لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية متفرعة من منظمة أممية إذا قامت هذه المنظمة الإقليمية على أسس جغرافية لا قومية .

وأما الثقافة فإنها تتألف من عناصر كثيرة ، قسم منها قومى وقسم آخر منها أممى ، ولهذا السبب هى أيضا لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية ، تنحشر بين منظمات القومية والمنظمات الأممية . . .

إن الإقدام على إنشاء مراكز إقليمية — فى قلب اليونسكو — مثل المركز المقترح للشرق الأدنى والأوسط ، يكون عملا منافياً لطبيعة الأشياء ولمصالح اليونسكو ، فى وقت واحد . . . نحن العرب ، انضممنا إلى منظمة اليونسكو ، وهى غير منقسمة إلى حجر متحاجزة، ونتمنى لهذه المنظمة أن تتجنب مغبة الانقسام إلى حجرات إقليمية . ومهما كان الأمر ، فنحن لا نودّ أن نُحجز فى حجرة خاصة ، ولا سيا فى هذه الحجرة المشهورة التى يسمونها باسم الشرق الأدنى والأوسط . فنحن نريد أن نتعاون

مع جميع أمم العالم — داخل منظمة اليونسكو — بصفتنا عرباً ، لا بصفتنا شرقيين » . . .

الجامعة العربية بين الشرق الأوسط والشرق الأدنى :

اصطلح الجغرافيون على تسمية الإقليم الذى يقع فى الجزء الجنوبى الغربى من قارة آسيا بالشرق الأوسط . ويشتمل هذا الإقليم على الأقطار العربية المختلفة سواء ما يوجد منها فى شبه جزيرة العرب أو فى الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة ، كما يشتمل على تركيا ، وعلى الأقطار القائمة فى داخل الهضبة الإيرانية . ويُحد الإقليم من الشمال البحر الأسود وبحر قزوين ، ومن الغرب البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وفى الجنوب بحر العرب وامتداده فى خليج عدن ، وفى الشرق خليج عمان والخليج العربى .

كتب السير ونستون تشرشل فى مذكراته عن الحرب العالمية الأخيرة (فى ٢٦ أغسطس ١٩٤٢) ما يلى : « إن المسائل التى كان يجب حلها الآن ما كانت تتناول أشخاص المناصب العليا فحسب ، بل كانت تشمل كل بناء القيادة فى هذه الساحة الفسيحة من مسرح العمليات الحربية . إنى كنت أشعر على الدوام أن تسمية مصر والمشرق وتركيا باسم الشرق الأوسط Middle East لم تكن من التسميات الموفقة ، فإن هذه البلاد تؤلف الشرق الأدنى ، وإيران والعراق تؤلفان الشرق

الأوسط وبلاد الهند وماليزيا وبورما تؤلف الشرق . وأما الصين واليابان فتؤلفان الشرق الأقصى » .

ولذا رأى تشرشل ضرورة تقسيم قيادة الشرق الأوسط ، التي كانت بالغة التنوع ، وشديدة الميل إلى التوسط ولذلك أصدر مساء ذلك اليوم التعليمات التالية :

« يعاد النظر في تنظيم قيادة الشرق الأوسط على أساس تقسيمها إلى قيادتين منفصلتين ومستقلتين .

ا ـ قيادة الشرق الأدنى : وتشمل مصر وفلسطين وسوريا على أن يكون مركزها القاهرة .

ب ـ قيادة الشرق الأوسط : شاملة العراق وإيران ، على أن يكون مركزها بغداد » .

هذه هي التقسيمات التي أوجدها تشرشل نتيجة الحاجات الحربية التي تشعر بها الحكومة البريطانية، فقد جمع تشرشل سوريا وفلسطين ومصر تحت اسم الشرق الأدنى ، ولكنه فصل العراق عن هذه المجموعة وعن سائر البلاد العربية ، وأدخله في نطاق الشرق الأوسط مع إيران . وكل ذلك ليس بناء على أحوال هذه البلاد نفسها إنما بناء على المساعدة التي تنتظرها منها السياسة البريطانية ، خلال الحرب التي تخوض غمارها .

ولكن ، بعد تسع سنوات من هذه التقسيمات ، في سنة ١٩٥١ وجه أحد النواب الإنجليز إلى الحكومة السؤال الآتي : ما هي البلاد التي تدخل في نطاق الشرق الأدنى ، حسب

الاصطلاحات الرسمية ؟ فأجاب وكيل وزارة الخارجية : « إن تعبير الشرق الأدنى الذى لازم السلطة العثمانية يعتبر الآن فى بريطانيا مما فات أوانه فى اللسان الرسمى ، ويستعاض عنه الآن بتعبير الشرق الأوسط . ومجموعة البلاد التى يشار إليها بهذا التعبير تشمل : مصر ، وتركيا ، والعراق ، وإيران ، وسوريا ولبنان، وإسرائيل ، والعربية السعودية ، وإمارات الكويت ، والبحرين ، وقطر ، ومسقط ، ومحمية عدن ، واليمن » . وعندما سأله أحد النواب : « واليونان ؟ » أجابه « اليونان تقع فى مدار البحر الأبيض المتوسط » .

هذا التصريح الرسمى يختلف عن تقسيمات تشرشل ، فقد دعا وكيل وزارة الخارجية البريطانية إلى هجر تعبير الشرق الأدنى وجمع تلك البلاد كلها فى منطقة واحدة ، تسمى الشرق الأوسط .

لماذا تغير رأى الحكومة البريطانية هذا التغير الكبير خلال تسعة أعوام ؟ كان هذا التغير نتيجة تغير مصالح بريطانيا . ففى سنة ١٩٤٢ كانت بريطانيا تحارب مع روسيا ضد ألمانيا . ولكنها فى سنة ١٩٥١ صارت تستعد للقتال إلى جانب ألمانيا ضد روسيا . وفى سنة ١٩٤٢ كانت بريطانيا تحارب فى البلاد الشرقية المذكورة فى جبهتين مختلفتين لهذا السبب رأت أن تقسم القيادة إلى قيادتين مستقلتين ، ولذا عززت فكرة الشرقين الأدنى والأوسط . ولكنها فى سنة ١٩٥١ صارت تضع خططها

الحربية على أساس جبهة واحدة ، فلم تعد ترى لزوما إلى تقسيم البلاد المذكورة إلى منطقتين ، بل رأت أن من مصلحتها اعتبار البلاد المذكورة منطقة واحدة لكى يسهل عليها حشد الجيوش وتموينها وتوجيهها . ولذا هجرت بريطانيا تعبير الشرق الأدنى وعززت مدلول الشرق الأوسط ، حتى جعلته يشمل مصر وإيران، وما بينهما من بلاد ، من البحر الأسود إلى المحيط الهندى ، أى من تركيا إلى اليمن وحضرموت .

وخلاصة القول : إن هذه التقسيمات والتسميات لا تقوم على أساس من التاريخ أو من الجغرافية الطبيعية أو البشرية . إنما هى تقسيمات تتمشى مع سياسة الدول الغربية .

إن خريطة المنطقة التى تسمى (الشرق الأوسط) تشطر العالم العربى شطرين : تترك الشطر العربى منه جانباً فتهمله إهمالا كليًا ، وأما الشطر الشرقى منه فتدخله داخل نطاقها ، إلا أنها تحشره مع طائفة من البلاد غير العربية وتطمس بذلك معالم العالم العربى وتخفى عن الأنظار شخصيته الخاصّة .

ولذلك نستطيع أن نقول إن فكرة الشرق الأوسط عندما تستولى على الأذهان تصرف الأنظار عن الالتفات إلى العالم العربى ، وتعرقل بذلك تبلور مفهوم « العروبة » تبلورا سليما ، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربى تكويناً سويا .

الجامعة العربية والدول الشرقية :

كثيراً ما تتناقل الألسن والأقلام هذه الكلمات دون فهم تام لمدلولها ومفاهيمها : الشرق ، الشرقى ، العقلية الشرقية ، الحضارة الشرقية ، العادات الشرقية ، الثقافية الشرقية ، والدول الشرقية . . . إلخ .

إن لكلمة الشرق معنى واضحا وثابتا فى الجغرافيا . ولكن هذا المعنى الجغرافى نفسه من المعانى النسبية التى تتبع مواضع الأمكنة والأشياء . ومع هذا ، فقد اعتاد الناس استعمال هذه الكلمة بمعنى مطلق ، للدلالة على بعض الأقطار المعينة من الكرة الأرضية . وهذا الاستعمال المطلق كثيرا ما يؤدى إلى الالتباس والاختلاف .

اعتاد الأوربيون استعمال كلمة (الشرق) للدلالة على البلاد التى تمتد من تركيا وإيران إلى الصين واليابان . لكنهم صاروا يقسمون هذه البلاد إلى ثلاث مناطق كبيرة ، ويسمونها حسب درجة قربها إلى أوربا إلى : شرق أدنى ، وأوسط ، وأقصى . فيتفقون على أن تركيا مع الشرق العربى من بلاد الشرق الأدنى ، كما يتفقون فى اعتبار الصين واليابان من بلاد الشرق الأقصى ، غير أنهم يختلفون فى تعيين حدود الشرق الأدنى من ناحية الشرق ، وحدود الشرق الأقصى من ناحية الغرب ، كما يختلفون فى تحديد الشرق الأوسط .

فهناك من يقول إن الشرق الأدنى هو الشرق المتصل بالبحر المتوسط ، والشرق الأوسط هو جميع البلاد المطلة على المحيط الهندى ، والشرق الأقصى هو جميع البلاد الآسيوية التى تطل على المحيط الهادى . وهناك من يهجر تعبير الشرق الأدنى فيكتفى بتقسيم الشرق إلى أوسط وأقصى . وبين الذين يذهبون هذا المذهب من يحصر مدلول الشرق الأوسط بمصر وإيران وبالبلاد العربية والتركية التى تمتد بينهما . وهناك من يوسع مدلول الشرق الأوسط ويجعله شاملا لجميع البلاد التى تمتد بين تونس وبورما .

ومهما يكن الرأى فإن هذه التقسيمات والتصنيفات ، لا تستند إلى أسس ثابتة من الجغرافية الطبيعية أو البشرية ، إنما هى تقسيمات اعتبارية ، تسعى إلى تقريرها سياسة الدول الغربية ، حسب ما تقتضيه مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية والاستعمارية .

تعوّد بعض الكتاب والباحثين فى معرض الكلام على الأقطار العربية، سواء أكان الموضوع اجتماعيًا أو ثقافيًا أم اقتصاديا أم سياسيا ، أن يخلطوا بين القضية العربية ، وبين ما يسمونه القضية الشرقية . إن قضية العرب قضية عربية وليست قضية شرقية . ولكن — ورغم هذا — تتصل قضية العرب بالشرق ، على اعتبار أن العرب شرقيون ، وعلى اعتبار أنهم كانوا ذوى

شأن و وزن فى هذا الشرق، قروناً طويلة ، فأثروا فيه وتأثروا به . ولا يمنع زوال هذا الشأن استمرار تشابك المصالح وتبادل المنافع وعواطف الود والصداقة الخالصة ، بين الأمة العربية و بين بقية الأمم فى الشرق .

ونحن وإن كنا ندعو إلى الأخذ بعين الاعتبار هذا التشابك فى المصالح والعلاقات بيننا و بين الشرق ، حتى وهذا التشابه بيننا و بين كثير من الأمم الشرقية ، فى الأوضاع القائمة ، فهذا لا يعنى ، ولا يمكن أن يعنى أن تفنى قضيّة العرب فى القضية الشرقية . وأن هذا الاتصال الذى ذكرناه ، ينبغى أن يفهم منه أنه اتصال لقضية العرب مجتمعة غير مجزأة ، أو للأمة العربية موّحدة على اعتبار أنها « كل » لا يتجزأ بالأمم الشرقية ، كل أمة على حدة ، وعلى اعتبار أن كل أمة منها مجتمعة « كل » لا يتجزأ ، ولا يزيد اتصال قضية العرب بقضية أية أمة شرقية عن اتصال قضية أية أمة شرقية بقضية العرب ، أو بأية قضية لأية أمة من أمم الشرق .

وليس من المنطق ولا من الكرامة ، ولا من المصلحة ، أن تذيب الأقطار العربية شخصيتها فى دنيا الشرق ، فينسى كل قطر عربى صفته العربية . ثم إنه يجب ألا ننسى أن قضيتنا تتصل بالدول الغربية سواء فى القارة الأوربية أو فى الأمريكيتين اتصالا لا يجوز أن نغفله بل نحاول أن نستغله فى تعزيز القومية العربية والجامعة العربية .

حاول بعض أعداء القومية العربية أن يوجدوا روابط سياسية وثقافية مستندة إلى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر الأبيض المتوسط . إن الجوار وحده لا يكفى لإيجاد رابطة . بل على العكس من ذلك ، قد يؤدى إلى منافسات ومخاصمات . كثيراً ما نشبت الحروب بين أمم متجاورة ما دام لا يربطها رابطة قومية . ولذا فإن الرابطة الشرقية لا تستند إلى أى أساس صحيح . إذ كنا نشاهد فى بعض الظروف ، شيئاً من التعاطف والتآزر بين الدول والأمم التى تسمى عادة باسم (الشرقية) فإن السبب فى ذلك يعود إلى تشابه أحوالها نتيجة لسيطرة الدول المستعمرة عليها ، لا إلى كونها شرقية . ويسجل التاريخ عدداً غير قليل من المخاصمات بين الدول الشرقية نفسها ، كما أننا نجد فى كثير من المناسبات مساعدة ومؤازرة من دول غير شرقية ، أكثر من بعض الدول الشرقية .

الجامعة العربية ورابطة البحر الأبيض المتوسط :

نادى الفرنسيون بفكرة (رابطة البحر الأبيض المتوسط) لإيهام اللبنانيين والسوريين بأنهم أقرب إلى فرنسا من العرب . بعض الكتاب ينسبون إلى البحر الأبيض ثقافة وحضارة خاصة ويبنون على ذلك (نظرية ثقافية) . ولكن كلمتى (ثقافة) و (حضارة) هما من أسماء المعانى التى تدل على مفهومات

ذهنية مجرّدة ، فلا تتحد بحدود مادية ثابتة ، فتكون مطاطة بطبيعتها . وأمثال هذه الكلمات تولد فى الأذهان معانى متباينة .

ولكن يمكننا أن نقول إن مفهوم الحضارة والثقافة متصلان، إلاّ أن مفهوم الحضارة أوسع نطاقا ، لأن الثقافة تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية وحدها ، بينما الحضارة تشمل الأمور المادية . وتتمثل الحضارة فى العلوم والصناعات ، بينما تتمثل الثقافة فى اللغات والآداب ، والحضارة قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى بسهولة ، وقابلة للانتشار ، بينما الثقافة تبقى خاصة بكل أمة على حدة ، فترتبط بلغة الأمة وأدبها . والأمم تتميز عن بعضها بثقافات خاصة ، وتشترك مع بعضها بحضارات عامة . والثقافة تكون فى حدّ ذاتها قومية ، والحضارة تكون بطبيعتها أممية .

لا توجد ثقافة تسمى (ثقافة البحر الأبيض) ، فالثقافة لا تتبع الروابط الجغرافية أو تتقيد بقيود المسافات . إن مرسيليا وبرشلونة على البحر الأبيض ، ومع ذلك فهما مختلفان فى الثقافة ، فثقافة مرسيليا فرنسية ، وثقافة برشلونة إسبانية . والإسكندرية وجنوة على البحر الأبيض ، ولكل منهما نوع خاص به من الثقافة . كما لا توجد حضارة تسمى (حضارة بحر أبيض) حقا كانت سواحل البحر الأبيض فى عهد من

عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك . فقد انتشرت الحضارة أولا إلى شمال أوربا ثم إلى ما وراء المحيطات ، وأصبحت الحضارة غربية ، ثم صارت أوربية ، ولم يعد للبحر الأبيض ميزة خاصة .

٧ ـ العرب والعالم فى العصر الحاضر

إن الأمة العربية تمر فى لحظات انتقالها التاريخى الحاسم ، انتقالها من الماضى المظلم الذى ورثناه بتفككه وفساده وجموده عن عصور الانحطاط والاستعمار العثمانى الطويل ، الماضى المجزأ المستعمر المغتصب الفاسد الذى يتنافى مع طبيعة الوجود القومى العربى الواحد . الماضى الذى كل ما فيه جمود يمنع التقدم ، وقيود تكبل الانطلاق . وكل ما فيه ظلم يمسخ العدالة وفساد يشوه القيم ويهدّد الإمكانيات ، ويجعلنا نعيش عالة على الحضارة الإنسانية . الماضى الذى لا يحقق إنسانية الفرد العربى ولا يمنحه الفرصة لأن يحيا وينتج ويبدع ، ولا يتيح المجال للأمة العربية لأن تحقق مبرّر وجودها كأمة حية فى هذا العالم فتنطلق وتعطى .

ثم انتقال إلى المستقبل الذى نريد . المستقبل الموحد المتحرر المشرق الذى يتلاءم وطبيعة الوجود القومى العربى الواحد . المستقبل المتجدد المتطور الذى تسوده العدالة الاجتماعية ، وتوجهه القيم الإنسانية الحقة . المستقبل الذى يوفر للفرد العربى حياة حرة كريمة ، ويظهر إمكانياته العظيمة وطاقاته الكامنة . ذلك المستقبل الذى يتيح للأمة العربية أن تعبر عن معنى وجودها

فى رسالة عربية إيجابية إنسانية ، رسالة تتصل اتصالا صادقاً بقيمة الإنسان أينما كان ، عن طريق اتصالها اتصالا دقيقاً بقيمة الإنسان العربى فى الوطن العربى . ونحن العرب اليوم نعيش فى هذا الانتقال التاريخى الحاسم .

نشهد ، نحن العرب ، اليوم حولنا هذا النزاع الهائل الذى تهتز له أركان المعمورة فى الشرق والغرب ، ونلمس أثر هذا النضال فى أنفسنا إذ قد أخذنا منه بنصيبنا وشاركنا فى تضحياته وآلامه أمم الأرض جميعا . فنحن نتساءل فيما بيننا وبين أنفسنا عما عسى أن يكون معنى هذا النضال ، وعما عسى أن يكون مبعثه الحقيقى ، وعما عسى أن يكون مداه، وماذا تكون غايته ونتائجه .

ونحن اليوم معشر العرب ننظر إلى الحاضر والمستقبل بقلوب ممتلئة بالتطلع والأمل . فقد مضى علينا زمن طويل كنا فيه نحس أن العالم الغربى يتجه إلى غاياته بغير أن يجعل اعتبارا لغاياتنا ، ويمضى فى تقدمه بغير أن يحفل بما يكون من ذلك التقدم على تقدمنا . ولكنا صحونا أخيراً إلى الحقيقة الواقعة وهى أن ذلك الغرب الذى يحمل لواء المدنية اليوم لم يبلغ من تقدمه موضع السعادة التى كان ينبغى للأمم المتمدنة أن تنشدها ، فبين شعوب الغرب من هم فى حالة سيئة ، وأن دول الأرض لم تستطع أن تبلغ الأمن والسلام بكل ما أوتيت من ثروة ومن علم . فهى مع كل تقدمها لم تستطع أن توفر الخير لكل أفراد

شعوبها ، وما زالت تعانى من الآلام أكثر مما نعانيه ، وما زالت تتطلع إلى الآمال التى لا تزال نتطلع إلى مثلها .

وليست الحروب الأخيرة ، والحرب الباردة الحالية ، إلاّ من الأدلة على حاجة الشعوب فى الشرق والغرب إلى السعادة والسلام . فهل من الممكن أن يحقق البشر هذه السعادة ؟ وهل نظم الحياة تمكنهم من تحقيقها ؟ وهل السيادة السياسية هى هدف الإنسان فى حياته فيضحى بسعادته فى سبيلها ؟ وهل أدى ضعف القيم إلى شقاء الإنسانية ؟ وهل يحقق الإنسان السلام ؟ وهل تحول نظم الدول وعلاقاتها ببعضها دون تحقق هذا السلام المنشود ؟

لقد حاولت الدول الغربية أن تعثر على أكسير السعادة ، سواء كانت سعادة الأفراد أو سعادة المجتمعات ، وحسبت فى بعض الأحيان أنها وجدت هذا الأكسير . فحسبت مرة أنها وجدته فى الحقوق الإنسانية ، وحسبت مرة أخرى أنها وجدته فى تقدم الفن والعلم . ولكنها لم تلبث أن عرفت خطأها عندما رأت أن السعادة لا تزال بعيدة عنها . وهل يترتب على هذا أن تكف الإنسانية عن البحث عن هذا الأكسير أم من واجبها أن تمضى فى سبيلها باحثة عنها لأنه هو أملها ولا حياة لها إذا هى لم تحتفظ به ؟

يتوقف مصير الإنسانية منذ فجر التاريخ على حلّ مشكلة كبرى ، هى السعادة . وكانت المشكلة واحدة فى مختلف

الأجيال ، ولدى جميع الشعوب . فطالب البشر فلاسفتهم على مرّ الزمن بتفسير معقول لها ، كما طالبوا زعماءهم وأولى الرأى فيهم بحل موفق للمشكلة المشتركة .

وقد جرّب الإنسان فى بحثه الطويل عن السعادة طريقين : الأولى داخلية ، بوضع حدّ للصراع المضطرم فى نفسه بين القوتين المادية والمعنوية ، اللتين تتكون منهما وحدته كإنسان . والثانية خارجية ، بوضع حدّ للنزاع الخارجى القائم بين نفسه لوحدة إنسانية ، وبين بقية الجنس البشرى بوجه عام . وقد اقتنع الإنسان أن مشكلة الإنسانية الكبرى تكمن فى هاتين المعركتين ، ولكنه لم يتمكن من تحديد الطريق التى يسير فيها ليصل إلى السعادة .

هناك صراع عنيف بين المادة والروح ، وبين الإنسان كوحدة والإنسانية كمجموعة . وإذا عرفنا أننا سنحصل على السعادة ، بانتصار الروح على المادة ، فما زال أمامنا التماس الوسيلة للحصول على النصر وتعزيزه . وإذا ما اعتمدت السعادة على انتصار المجموعة الإنسانية ، فما زال أمامنا تنظيم انتصارها وتأمينه فى وضعه النهائى ، حتى تتحقق السعادة .

إذا نظرنا إلى مشكلة البشر الكبرى ، وجدنا أنها تتعدى حدود البنيان الذاتى للإنسان ، فإذا أنعمنا النظر وجدنا أنها قد نشأت نتيجة لصراع قوتين متعارضتين خارجتين عنه . ولا صلة لهما بما فى داخل الوحدات الأخرى التى تتكون منها

البشرية مجتمعة ، أو بمعنى آخر « المجتمع الإنسانى » .

يتألف المجتمع الإنسانى من اتحاد الوحدات البشرية حتى تصبح هيئة واحدة نُطلق عليها هذا الاسم ، ولا يمكن أن يتم هذا الاتحاد إلا إذا تنازلت كل وحدة على حدة عن بعض حقوقها الذاتية، وضحت ببعض مصالحها حتى تكون جزءا من المجتمع ، مثلها فى ذلك مثل التضحية برأس المال للحصول على ربح معين ، فهى إذا تنازلت وضحت ببعض مصالحها وحقوقها إنما تتنازل على أمل الحصول على ما يفوق ما قدمته فى الأصل من حقوق ومصالح .

أبرز مشاكل العالم فى الوقت الحاضر – كما يرى أورجانسكى – هى « الصراع من أجل تولى زعامة العالم » ، كما أن حركة التصنيع تغير وجه المعمورة فتخلق أمماً جديدة وتغير من طبيعة السياسة الدولية . وهذا التغيير الزاحف اقتصادى اجتماعى فى جذوره ، غير أن تقدمه يتميز ببعض الثورات السياسية . وها هى تلك الدول المستعمرة تنفض عنها أغلال الاستعمار وتحقق حرياتها ويمضى الاستعمار نحو نهايته . كما يتغير توزيع القوى بين الأمم الكبرى فى العالم ، وتقترب الفترة التى كان يسودها حكم الرجل الأبيض من نهايتها .

إننا نعيش بين حقبتين من حقب التاريخ . فقد ولدنا فى عالم وكتب علينا أن نموت فى عالم آخر ، وحياتنا هى الطريق التى تصل بين هذين العالمين ، والتى سنقف فيها بضع سنين

لنتمكن خلالها من أن نشاهد كلا منهما . ونحن نعيش فى وقت يكتنفه الاضطراب والتغير ، فنقضى معظم حياتنا فى حقبة من تلك الحقبة القصيرة لأجل الحقبة التى يمكن للمرء فيها أن يرى الماضى والمستقبل فى إطار واضح ، وأن يفطن إلى الاختلافات بينها . وأن يقتفى أسباب الاختلافات ومبرراتها .

أصبح العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تتنازعه فلسفتان : فلسفة الرأسمالية ، وهى تتلخص فى إطلاق العنان لحريات الأفراد الاقتصادية . وفلسفة الشيوعية التى ترمى إلى سيطرة الحكومة على وسائل الإنتاج فتختفى بذلك حريات الأفراد وراء جبروت الحكومة .

وبتأثير هاتين الفلسفتين العمليتين تكون فى العالم الآن معسكران عظيمان ، وهما المعسكر الرأسمالى وهو يضم دولا كثيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، والمعسكر الشيوعى ، وهو يضم عدة دول وعلى رأسها روسيا السوفيتية .

وكل من هاتين الفلسفتين أو هذين المعسكرين تعمل وتحاول نشر مبادئها ونفوذها وسيطرتها على سائر أقطار العالم ، وكل منهما لا تستطيع أن تعيش مع الأخرى داخل دولة واحدة ، بل لا يمكن لهما أن تعيشا فى عالم واحد . فما دام كل منهما يرى ويعتبر الآخر عدوا يقف فى طريقه فلا بد من نشوب حرب عالمية ثالثة . وهى إن وقعت كارثة على العالم والمدنية .

لا يمكن أن توجد فى العالم هيئة دولية قوية تستطيع منع

الحرب وتدعيم السلم العالمى الدائم إلاّ بائتلاف النظريات والمبادئ المختلفة واندماجها فى بعض . ولكن من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن يحصل الائتلاف بينها ، لتعارض أسس هذه المبادئ وأغراضها وأساليبها .

إن العلة ليست فى وجود هذه المبادئ والنظريات المختلفة فى العالم ، وإنما العلة هى فى وجود فكرة « عالمية النظام » وتخمر هذه الفكرة فى رؤوس بعض القادة والساسة ، فلا يضرّ المجتمع العالمى ولا الأسرة الدولية أن يطبق فى أمريكا مثلا النظام الرأسمالى، وفى روسيا النظام الشيوعى ، وفى إنجلترا أى نظام اشتراكى تراه مناسباً لها ، وأن يطبق فى سائر الأقطار الإسلامية الشريعة الإسلامية . وهكذا بالنسبة لبقية الدول الأخرى .

نعم إن العالم يتجه إلى الوحدة ، ولكنها ليست وحدة الحكم والإدارة ولا وحدة النظام والنظرية ، وإنما هى وحدة الهدف والغاية . وهى أن يعيش الجميع فى جو مشبع بالمحبة والوئام والإخاء الإنسانى العام ، وغيرها من عناصر السلم العالمى الدائم ، وأن يتمتع الجميع فى الحياة بالعدالة والرفاهية وبالرخاء الشامل للجميع .

فالحكومة العالمية — التى ذاعت فكرة إنشائها فى السنوات الأخيرة — ليس معناها إلغاء الحكومات الحالية وإدماجها جميعاً فى حكومة عالمية واحده موحدة ، وإنما معناها إقامة حكومة فوق الحكومات Superélatiques فالذى يضر ويعكر

صفو علاقات الدول ويؤدى إلى اضطراب أحوال المجتمع البشرى عموما هو استمرار بعض الدول فى استغلال البلدان الأخرى فى استعمارها وامتصاص محاصيلها وثرواتها ، وكل هذا نتيجة من نتائج فكرة « عالمية النظام » .

فالدواء الناجع لهذا الداء الخطير هو وقف فكرة « عالمية النظام » هذه ، وذلك بخلق مجتمع خاص فى كل قطر من أقطار العالم التى تتنازعها هذه الدول الكبرى الاستعمارية . ونعنى بالمجتمع الخاص ، المجتمع الذى لا يمكن أن تؤثر فيه عالمية الشيوعية ، ولا عالمية الرأسمالية . المجتمع الذى يتحقق فيه بفضل نظمه وأوضاعه الاقتصادية الرخاء والرفاهية لجميع أفراده ، ويتدعم فيه السلام الاجتماعى والاستقرار السياسى . فيسير هذا المجتمع فى اتجاه واحد مع اتجاه هيئة الأمم المتحدة .

إلى جانب المعسكر الغربى ، والمعسكر الشرقى ، يوجد معسكر ثالث يمكن أن نسميه (معسكر الحياد) ، ومن المعروف أن عددا من دول الكتلة الآسيوية الأفريقية ومن ضمنها الوطن العربى ينتسبون إلى هذا المعسكر ، معسكر الحياد . ومعظم دول هذا المعسكر تجمعهم مصلحة واحدة فى البقاء على الحياد من الصراع الدائر بين المعسكر الغربى والمعسكر الشرقى ، فهل معنى هذا أن دول معسكر الحياد الذى تجمعهم مصلحة واحدة يؤلفون « قومية واحدة » ؟

إنه من الواضح خطأ هذا الرأى ، والسبب فى خطأه واضح

أيضا ، فلا بدّ أن يكون هناك روابط أخرى إلى جانب رابطة المصلحة تشد الجماعات البشرية إلى بعضها البعض وتكوّن منها قوميات مختلفة متميزة .

إن الكفاح المشترك الواحد ، ووحدة الأخطار ، والمصلحة الواحدة فى التكتل ضدّ هذه الأخطار ، لا شك عامل هام فى إيجاد الترابط القومى، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقول إن هذه المصلحة هى التى تخلق القومية . ولنتساءل بعد ذلك إذا كانت مصلحة التكتل ضدّ الأخطار ومصلحة الكفاح الموّحد هى التى تخلق القومية ، فمن المفروض إذن ، أن جميع الشعوب التى نالت استقلالها لم تعد تكون قوميات ، لأنها حسب المنطق السابق قد اجتازت مرحلة الكفاح الموحد ، والظروف التى تستلزم ضرورة التكتل والاتحاد ، أى أنه ليس هناك اليوم شىء اسمه قومية هندية،ولا شىء اسمه قومية صينية، ولا شىء اسمه قومية يوغسلافية .

وواضح أيضا خطأ هذا الرأى . إننا لا نستطيع أبداً أن نقول إن القومية الهولندية قد خلقت بفعل نضال الهولنديين ضد إسبانيا ، وإن القومية الإيطالية خلقت نتيجة نضال الإيطاليين ضد النمسا ، أو إن القومية الألمانية خلقت نتيجة نضال الألمان ضدّ النمسا وفرنسا والدنمرك . أو إن القومية العربية قد خلقت نتيجة نضال الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل .

إن الذى تولد عن النضال المشترك ضد الأخطار التى

تحيط بالأمم هو نموّ الشعور القومى ، وهو تبلور الروح القومية ، وازدياد الوعى القومى . ولكنه ليس أبداً نشوء القوميات . ونحن لا ننكر هنا أهمية المصلحة الواحدة فى دعم الوحدة القومية لدى أية جماعة ، المصلحة فى العيش المشترك فى مجتمع قومى واحد تتكامل فيه مصالح الأفراد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمصلحة المجموع القومى . ولكن يتضح بجلاء من الأمثلة السابقة أن القومية لا يمكن أن تقوم أبداً على عامل المصلحة فقط . وإلا لوجب أن تندمج ثلاثة أرباع قوميات العالم فى قومية واحدة . كما لا يمكن أن تقوم على عامل اللغة فقط ، وإلاّ لوجب أن تكون أمريكا وبريطانيا قومية واحدة ، وأن تكون سويسرا ثلاث قوميات مختلفة ، وأن تكون بلجيكا قوميتين مختلفتين .

إن القومية هى الواقع التاريخى الناشئ عن تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والأرض والثقافة والمصالح تفاعلا تاريخيا ، ولا يمكن أن تنشأ عن رابط واحد من هذه الروابط بالنسبة لكل قومية فقد يكون عامل المصلحة هو عامل هام فى إيجادها فى بعض القوميات ، وقد تكون عوامل اللغة والتاريخ والثقافة هى الأهم بكثير فى قوميات أخرى ، كما بالنسبة للقومية العربية ، ولكن الثابت أن هذه الروابط القومية ، لا يمكن أن يخلق منها أى منها بمفرده قومية متميزة .

وكما أن المصلحة السياسية فى التكتل ضد الأخطار ، وفى

الكفاح الموحد لا تخلق القومية العربية ، فكذلك المصلحة الاقتصادية وحدها لا تخلق القومية العربية أبدا .

نحن الآن ، أمام قوتين : قوة الاستعمار الذى ما زالت تمثله إنجلترا وفرنسا وهولندا والروسيا وأمريكا . وبين قوة القومية الجديدة التى تحاول أن تكون استمرارا لكل المثل العليا .

فقد يعتقد الأمريكيون أن العالم منقسم قسمين : قسم شيوعى وقسم ديمقراطى (كما يسمونه) . ولكن المسألة عند العرب والشرقيين ليست كذلك ، فالعالم عنـــدهم ينقسم قسمين : قسم مستعمر يريد أن يستعبد الناس سياسيا واقتصاديا وقسم آخر متحرر يريد أن يكافح الاستعمار فى كافة صوره . وفى هذا الجهاد بين الاستعمار وبين القوة الجديدة ظهرت هذه القومية الجديدة التى نريد أن نقف عندها وقفة أخيرة حتى نتعرف موقفنا نحن فى هذا العالم الجديد .

كتب المؤرخ (هانز كوهن) كتاباً بعنوان (المدنية الغربية فى الشرق الأدنى) يصوّر العلاقات بين أوربا وبين بلاد الشرق الأدنى على أنها مادية من ناحية التجارة والاستغلال الاقتصادى وكان هذا ما تهدف إليه البلاد الأوربية ، ويصوّر هذه العلاقة على أنها ثقافية من ناحية التعلم والتقدم الروحى والتشبع بالمبادئ الدستورية وأصول الحرية التى كان الأوربيون ينادون بها فى بلادهم . وفى هذا كثير من الصواب . ولا عجب أن يتأثر المصريون أو السوريون أو الإيرانيون بمبادئ الحرية حين يرون

بلادهم نهبا للأجانب . ولما كان هناك تناقض فى هذه العلاقة فقد حدثت الثورات التى قامت بها بلاد الشرق الأدنى ضد احتلال بلادهم فإذا كان على بلادهم حكام منهم يعاونون المستعمر أو يعاونهم المستعمر على حكم بلادهم ثار الشعب ضد الحاكم والمستعمر فى وقت واحد ، وكان سلاح الشعب الروحى فى كل ذلك هى تلك المبادئ الديمقراطية والاستقلالية التى تعلموها من الثورة الفرنسية أو الدستور الإنجليزى أو إعلان الاستقلال فى أمريكا . ولا زالت هذه العلاقة ذات الوجهين قائمة اليوم فى صراعنا مع قوات الاستعمار التى تتربص بنا الدوائر .

فى هذه الساعة الحاسمة التى يبدو فيها العالم منقسم إلى معسكرين مشتبكين فى صراع مميت ، يحاول كل منهما جهد طاقته أن يستميل العالم العربى إلى جانبه لسببين رئيسيين : أولهما موقعه الاستراتيجى الذى يحتمل أن يشن منه أى منهما هجومه الماحق أو يبنى فيه وسائل دفاعه . وثانيهما موارده الطبيعية وعلى الأخص البترول أعظم الموارد الطبيعية أهمية فى زمن الحرب أو فى فترة الاستعداد للحرب . وينظر الفرد العربى إلى المعسكرين ولسان حاله يقول : قاتل الله الطرفين .

إن العرب يكرهون الأجانب ليس لأنهم أجانب ، بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم . وقد كان العرب يسيرون مع دول أوربا على أكثر من طريق

واحد ، كما شوهد خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى فقد تعاونوا مع المسيحيين ضد العثمانيين إخوانهم فى الدين : وعلى الرغم من خيبة آمالهم المريرة بالحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى ، وبالرغم من تجربتهم القاسية للإدارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية ، فقد انضموا إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم ما عتموا أن وجدوا الحلفاء يضحون بهم فى سبيل العصابات الصهيونية .

كانت سنوات ما بين الحربين ، سنوات نضال شنته العروبة ضد السياسة البريطانية والصهيونية . وكان البريطانيون يملكون القوة المادية والسياسية لفرض خطتهم ، وكان الصهيونيون يملكون المهارة فى استغلال الجانب العاطفى والإنسانى من الرأى العام الغربى . أما العرب فلم يكونوا يملكون غير الحق .

ظن العرب أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تكون أكثر إنصافا ، باعتبار أنها كانت حاملة لواء حقوق الإنسان والشعوب ، والمدافعة عن العدالة ، والمنادية بتطبيق المبادئ الأخلاقية فى المحادثات والعلاقات الدولية . ولكن العرب سرعان ما شعروا بخيبة الأمل فتحولت مرارة العرب التى كانت موجهة فى السابق نحو الإنجليز إلى الولايات المتحدة ، ولقد أصبحت مشكلة فلسطين رمزًا لعدم نضج الغرب ، وبخاصة أمريكا ، وسوء نواياهم جميعا فى العلاقات الدولية .

ومما قوى هذا الاعتقاد الطريقة التى عالجت بها دول الغرب

عامة ، والولايات المتحدة الأمريكية خاصة المشكلة الفلسطينية ، فقد أهملت فرض قرارات هيئة الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين بمثل الهمة والحماسة التى فرضت بها قرار الأمم المتحدة حول كوريا . ولم تقم بأية محاولة لتنفيذ قرار التقسيم الأصلى الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، ولضمان تدويل منطقة القدس ، ولتطبيق القرارات المتعلقة باللاجئين العرب . ولم تبد أى ميل إلى فصل سياستها العربية العامة عن سياستها الإسرائيلية ..

كتب الدكتور نبيه فارس ، اللبنانى الجنسية ، مقالا فى مجلة (لايف) الأمريكية تحدث فيه عن الوسائل التى يمكن للولايات المتحدة أن تتبعها لتكسب صداقة العرب ، وهى :

أولا : يجب أن توضح الولايات المتحدة لحليفتيها بريطانيا وفرنسا بأنهما يجب ألا يؤملا فى مساعدتها وتأييدها فى سياسات لا تتفق ومبادئ الديموقراطية الأمريكية وتؤدى إلى قمع أمانى العرب القومية .

ثانيا : يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن توالى إسداء المعونة المادية والفنية للشرق الأوسط دون أن تكون هذه المعونة مرتبطة بأية غاية أخرى حتى لا تتخذ طابع مساومة عند قوم عرفوا بحنكتهم التجارية وحذقهم فى المساومة .

ثالثا : يجب على الولايات المتحدة أن تحاول إصلاح سياستها الفلسطينية الخاطئة الخطرة ، وذلك بتطبيق قرارات هيئة الأمم المتحدة حول فلسطين والمتعلقة بحدود إسرائيل وتدويل

منطقة القدس و إعادة اللاجئين العرب إلى وطنهم أو تعويضهم عن أملاكهم . وإذا لم تستطع أن تفعل ذلك فبإمكانها ، على الأقل ، أن تمهد الطريق كل من الحلول مبنى على العدالة والديموقراطية .

وخلاصة القول : ليست الإنسانية أمما وقبائل، أومعسكرات وأحلافاً ، أو هيئات ومنظمات . وليست كلمات وخيالات ، أو نظريات وفلسفات . وليست سيطرة مذهب من المذاهب ، أو غلبة دولة من الدول . وإنما هى وحدة عالمية شاملة ذات حضارة إنسانية جامعة ، تقوم أركانها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعالمية على المواطن العالمى الصالح ، ولخير كل فرد من الشعب العالمى الواحد .

ولا سبيل إلى نشر السلام إلا بإعداد النفوس لقبول الأوضاع الدولية الجديدة التى يجب أن يتجه إليها العالم كافة ، لأن العلاقات بين الشعوب قد أفسدها عدم التفاهم وسوء الظن وضيق الإدراك فى أن الأرض متسعة للجميع ، والجهل بكفاية خيرات الطبيعة ومقدرتها لسدّ حاجيات الجميع .

ويرجع منشأ ذلك كله إلى ظلام الجهل الذى ساد ولا يزال يسود الآن معظم المجتمعات البشرية فى الشرق والغرب . ومانقصده بالجهل هنا ليس الجهل العادى المعروف فحسب ، بل الجهل العام بإمكان الحياة السليمة للمجتمعات البشرية وبطرق تحقيقه ذلك ، وبأن التماسك والترابط بين الشعوب لا يقوم على الماديات

وحدها ، بل هناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع .

كان أفراد المجتمع فيما مضى ينقسمون إلى ثلاثة أقسام إزاء الحركات الوطنية أو القومية . فريق لا يبالون بها وقد يظاهرونها بأقوالهم لا بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق يعارضونها ويعرقلونها بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق وهم المخلصون يكرسون أموالهم وأوقاتهم وحياتهم لها ويستميتون فيها . وبديهى أن هذا الانقسام بين أفراد مجتمع واحد وضع غير طبيعى . ولكن الحركات الوطنية القومية أصبحت تمس جميع ميادين الحياة وتهم جميع أفراد المجتمع ، وبخاصة وأننا العرب نهدف إلى حركة وطنية قومية واسعة ، تقوم على مبادئ إنسانية عامة تتمشى مع اتجاه الأسرة الدولية ، وتعمل على تحقيق مصالح جميع سكان العالم المشتركة .

وغنى عن البيان أن اشتراك الجميع فى الحركة سيكوّن فيهم رأيا عاما صحيحا ناضجا وهو أساس تكوين الرأى العالمى الناضج ، وللرأى العام شأن أكبر فى توطيد العلاقات وتدعيمها بين الأفراد وبين الدول .

هذه هى رسالة الوطن العربى فى بعثه الجديد ، وستكون رسالة كل وطن وكل إنسان . ونحن العرب فئة من البشر آمنت برسالتها الإنسانية ، ووجدت لزاماً عليها أن تضع يدها فى أيدى المؤمنين مثلها حتى يسيروا جميعا صفا واحدا فى الموكب الإنسانى العظيم ، فنحن لا نبغى أن نجرّ أحد وراءنا ، ولا نقبل أن

يجرّنا غيرنا وراءه ، وإنما سنسير جميعا على قدم المساواة .

فوحدة المجتمع البشرى ستقوم على وعى عالمى ، ورغبة عند جميع الأمم ، وتكيف لمقتضياتها ، وتعاون حرّ على تحقيقها ، وتشكيلها على هيئة تعامل كل جماعة من الناس على قدم المساواة ، وتضم كل فرد من البشر . وهذه هى رسالتنا الإنسانية إلى العالم .

فهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

أغسطس ١٩٦٠   الثمن ٣٠ مليما